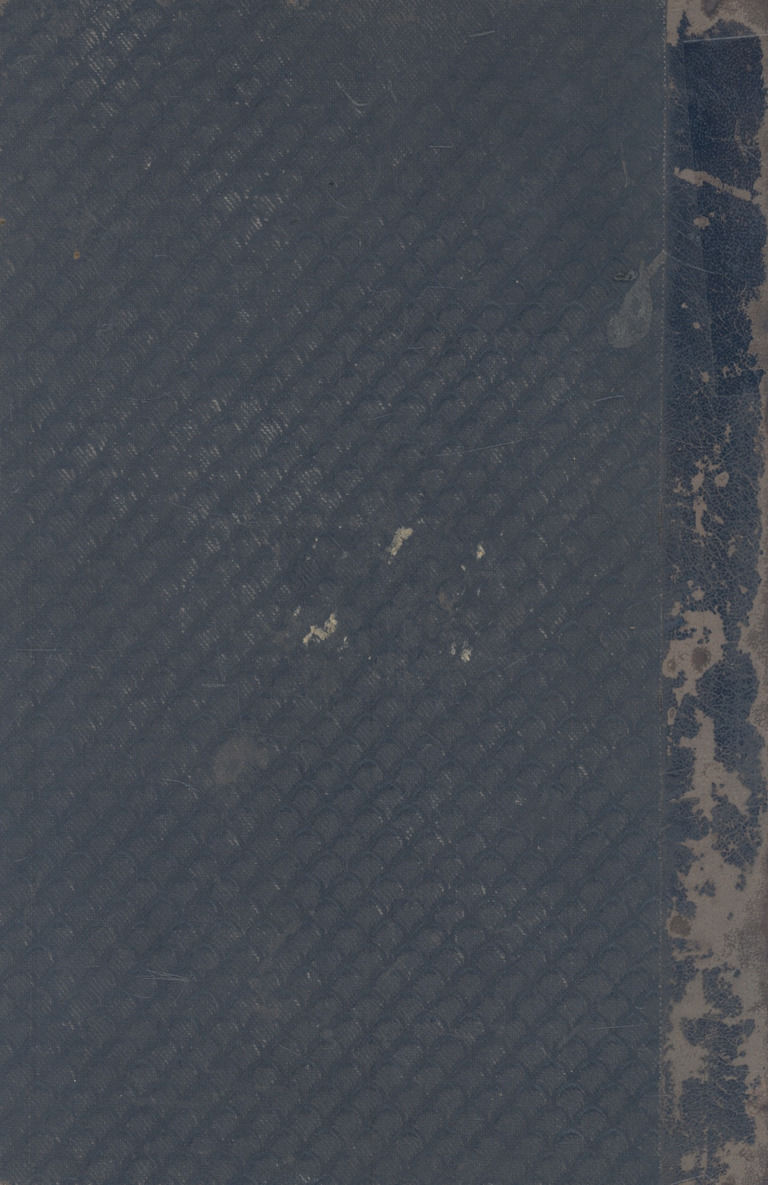


فهرست كتاب الاسلام

صحيفة

﴿ الفصل الثاني ﴾

الاسلام في زمن الفتح ومدة حكم العرب
وفيه مباحث

﴿ الفصل الثالث ﴾

تعدد الزوجات
وفيه مباحث

صحيفة

﴿ الفصل الرابع ﴾

جنات المسلمين

وفيهِ مباحث

﴿ الفصل الخامس ﴾

القضاء والقدر

وفيهِ مباحث

صحيفة

﴿ الفصل السادس ﴾

انتشار الاسلام ايام الفتوحات العربية

وفيهِ مباحث

﴿ الفصل السابع ﴾

الاسلام في الجزائر

وفيهِ مباحث

صحيفة

﴿ ملحقات ﴾

« الملحق الاول »

صحيفة

﴿ الملحق الثاني ﴾

﴿ الملحق الثالث ﴾

مقابلة

بين الصيغة التي يقولها مسيحي يعتنق الاسلام
والتي يقولها مسلم يتنصر

صحيفة

الاسلام

خواطر وسوانح

تأليف

الكونت هنري دي كاستري

ترجمه الى اللغة العربية

احمد فتحي بك زغلول

رئيس محكمة مصر الابتدائية

١٣١٥ — ١٨٩٨

طبع بمطبعة المعارف بمصر باول شارع الفجاله (نمره ٧)



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

اما بعد فأني عثرت على كتاب فرنساوي ألفهُ حضرة الكونت هنري دي كستري في الدين الاسلامي سنة ١٨٩٦ ميلادية ولما فرغت من قرآته وجدتني منساقاً الى ترجمته فلم يدركني ملل ولا نصب حتى أتيت على آخر الكتاب وعدت فراجعت الترجمة فاذا هي تكاد ان تكون حرفاً بحرف ثم توجهت الفكرة الى طبع هذه الترجمة ونشرها على الناطقين بالعربية فاعترضني بعض الاصدقاء بعد ان اريته شذرات من الترجمة وكان من رأيه عدم النشر بالطبع واحتج بان الكتاب وان كان غاية في التدقيق قاصداً نهاية التحقيق غير انهُ اضطر الى ذكر ما كان يعتقدهُ او يتوهمهُ مسيحو العصر الخالية في الدين الاسلامي من الشناعات والسباب. وذكر مثل هذه الاشياء وان كان على سبيل

الرّد عليهِ ربما اشمأزت لهُ النفوس ووقع من المطلعين عليهِ موقع الاعتراض وعدم القبول · فهو لا يروق من هذه الجهة جماعة المسلمين واني لم يكن ليخطر ببالي مثل هذا الخاطر ولم يدر في خلدي ان يعترض واحد على ذكر هذه الاشياء في الكتاب وهي لم تذكر من المؤلف وهو مسيحي على انها حقائق بل اوردها على انها اوهام علقت باذهان المسيحيين من تلك الاعصر وترتب عليها ارتسام المسلمين في مخيلاتهم بالصور الشنعاء واراد المؤلف محوهاته الصور من مخيلات الاجيال الحاضرة فبرهن واقنع واستدل بالحجة القاطعة على ان تلك موهومات لانصيب لها من الحقيقة وذكر اسباب ايجادها في النفوس ورغب الى قومهِ ان يستبدلوا تلك الصور المشوهة بصورة الاسلام الحقيقي وما يدعو اليهِ من خيرٍ واصلاح · فلذلك لم اعوّل على رأي ذلك الصديق في التأخر عن الطبع الاَّ انهُ اوجب عندي استشارة غيري وغيره فرأيت امام الصديق المعارض اصدقاء موافقين وغيرهم مستحسنين وغيرهم آمرين وبالطبع غلب رأي الاكثرين رأي الواحد خصوصاً وانهُ لم يستند الاَّ على شيء قال ربما يحصل ونحن نقول ربما لا يحصل وان حصل فهو من عدد قليل وانهُ لو لم يذكر المؤلف ما ذكرهُ من تلك الموهومات ونبّه على فساده وبرهن على خلافه لبقي مركوزًا في اذهان قومه وبقينا ونبينا عندهم على ما توهمهُ السابقون منهم اما وقد فعل فلا شبهة في انهُ خدم ما استطاع ووجب علينا شكره ما استطعنا ومن تمام شكره اعلام

قومنا بكتابه ولكننا لم نرد ان نأخذه بدون اذنه واستمحناه الاذن فيه فتفضل بالاجابة وكان لهُ بذلك كمال الشكر والامتنان

على ان امكان اشمئزاز البعض مما جاء في هذا الكتاب من الاقوال التي ردها المؤلف ودل على خطائها بالبرهان لا يقابل الفائدة التي نراها من نشره والذي يقصد الفائدة ويتحرى مآخذها لا ينبغي له ان يلتفت الى ما عساه يكون من نفور بعض القراء فانهم لو انصفوا لما نفروا

هذا وان قومي لعلى علم تام من ان مقصد مثلي حسن وغرضي انما هو التنبيه على انه قد وجد من غيرنا من قام للدفاع عنا بذكر الحقائق وسرد الوقائع التاريخية الصادقة فسفه رأي قومه فينا وابان لهم وجهي الخطإ والصواب ومن الواجب علينا ان نعرف ما قيل عنا وما دفع به الدافعون وليتهم كانوا منا وان نتعرف صاحبي الرأيين فنعرف المخطي. ولا ندع له بابًا آخر للطعن علينا ونعرف لذي الصنيعة صنعه الجميل فنزيده اعتقادًا باستحقاقنا لما صنع. وفينا كتاب الله اعظم مرشد لهذا السبيل فقد حكى بعض المذاهب بنصها وقصها ورد عليها بغاية الايضاح والتبيين وعندنا كتب سادتنا الاولين في علوم الاصول والكلام وكلها تحكي المذاهب الباطلة مفصلة وترد عليها. ومن علمائنا السابقين من يوجب حكاية المذهب الفاسد ليتمكن المطلع من الرد عليه بالدليل فاذا كان هذا هو الحال في المذاهب التي قررها اصحابها

ويخشى حقيقة من انتشارها لانها مبرهنة بنوع من البرهان وان كان فاسد المقدمات فما الظن بما حكاه الغير عنا على غير وجهه اما غلطاً او قصداً لغرض مخصوص. اظن انه لا يختلف اثنان في انه من ألزم الواجبات حكاية ما حكوه واشهار ما قالوه واذا كان الغرض في القسم الاول هو الرد عليه فليكن الغرض من هذا القسم معرفة ما رمينا به وهذا بلا ريب ينتج الرسوخ في العقيدة عندنا وينتج ايضاً اقتناع الواهمين بضد ما توهموه وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء ويحبها افاضل العلماء

وفوق هذا فإنا بذكرنا ما قالوه قدحاً علينا او طعناً في ديننا او صاحبه عليه الصلاة والسلام نرجع الى انفسنا ونبحث عما اذا كان لاقوالهم من اعمالنا منتزع ام لا فان كان لهم منها منتزع علمنا كما هو الصواب انه ليس من اصل الدين فلا نلبث ان نتباعد عنه ونرجع لاصل الدين القويم ولا نحيد عن العمل به في اي حال من الاحوال وان لم يكن لهم من اعمالنا منتزع ادركنا ان لهم غرضاً مخصوصاً وعملنا على ما يزيل هذا الوهم من انفسهم او يدفع بهم الى تغيير غرضهم فينا وهم لا شك مجتنبوه اذا رأوا منا ذلك المنهج المعتدل والسير على الصراط المستقيم فان مقاومة الوهم بمثله لا تفيد

ثم انه لا ينكر ان في همتنا قصوراً عن البحث فيما يعتقده الناس فينا فاذا قيض الله لنا من بحث بدلنا وزد الشبه عنا فما اجدرنا بقبول

عمله واظهار الرضا به وما اولانا بنشر تحقيقاته بيننا حتى تعمّ فائدتها جميعنا وربما جرّنا هذا الى الاشتغال بانفسنا فان ما حك جسمك مثل ظفرك ولا احسن من ان يتولى الانسان مصالحه بيده مع حفظه حق مرشديه وعدم انكار صنيعهم الجميل

ولقد رأيت للمؤلف من التثبت في النقل والاعتدال في الحكم واستعمال الذوق في الرد واعمال العقل في النقد وطريقه والاستشهاد بالوقائع التاريخية ما فاق به سواه من مؤلفي زمانه فبان لي انه غرضه الحقيقة ايًا كانت ولا اواخذه في بعض مواضع كتابه مما لم يطابق نقله الاحكام الشرعية اذ ربما اعتمد فيه على قول بعض النقلة وربما كان نقله صحيحًا على بعض المذاهب التي لم اقف انا عليها ولذا لم ألاحظ عليه في الهامش ملاحظات مستقلة وفضلاً عن هذا فانني رأيت ان تكون الترجمة نقلاً للاصل برمته ليعلم ماذا قصد وماذا كتب ويكفينا منه انه طالب للحق وان جاء في بعض آرائه ما عساه يحمل على الخطإ مثل الذي لهُ في التأويل والحكاية عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم واعماله واعتقاداته · على انه لا يفوت قراء الترجمة ان الكتاب كتب لينشر بين قوم المؤلف وكان لا بد له من ملاحظة افكار المكتوب اليهم واحوالهم وربما اضطر في ذلك الى ابراز بعض الحقائق الثابتة عنده في صورة الاحتمال والامكان كما يشير اليه كتابه الى ايذانًا بنشر ترجمته كذلك لم اشأ ان اكون معه من المجادلين لئلاّ

تضيع الحقيقة او ينجر الامر الى الانكار على صاحب مقصد حميد

هذا واني تاركٌ هنا ما نحن عليهِ من وقوف حركة النظر ومن تعطيل قوّة البحث في العلوم ومن تركِ ما دعينا للعمل بهِ من قواعد الدين ومن الابتداع فيهِ وعدم العمل بزواجره واجتناب نواهيه ومن اغفال ما حثنا عليهِ من العلوم النافعة والتربية الناجعة فان ذلك وان كان لهُ مساس بما نحن بصدده الاَّ انهُ يقتضي الشرح الطويل مما لا يحتملهُ هذا المقام ولكننا نقول قولة مجملة بان الاسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يرضى منا بالغفلة عن المنافع والمصالح ويطالبنا بدفع المفسدة ويحثنا على مكارم الاخلاق ويبين لنا ان كل بدعة ضلالة وان كل ضلالة في النار وان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وان العلم يطلب ولو في الصين وان لا شيء من العلم بضار ولا شيء من الجهل بمفيد وان من احدث في الدين ما ليس منهُ فهو رد عليهِ . هذه هي تعاليم الاسلام الاَّ ان الاعصر الحاضرة قد خرجت بالدين الى ما ليس منهُ فعطلت شعائره الحقيقيــة ودخلت فيهِ البدع وتغلبت المعتقدات الفاسدة على القواعد الصحيحة وتمسك الناس بالبدع وتركوا الفروض والواجبات وكاد القرآن يتلى مع الآلات المطربة والصلاة تؤدى في الحانات واندثر العلم وانحلت العزائم وقعدنا عن تحصيل القليل من ضرورياتنا وتأخرت التربية ففسدت الأخلاق وتناكرت النفوس فاختلفت المساعي وتعاكست المقاصد

فتفرّقت المنافع وانحل عقد نظام المسلمين فاصبحوا اشتاتاً يمقتهم الناس ويرمونهم بالانحطاط ويعيرونهم بما تنزه عنهُ شرعهم ولكنهم ألفوهُ وبالغوا في التمسك بهِ حتى تبدلت الاحوال وصار كما قال صاحب المنار (الجبر توحيدًا وانكار الاسباب ايمانًا وترك الاعمال المفيدة توكلاً ومعرفة الحقائق كفرًا والحادًا وائذًا المخالف في المذهب دينًا والجهل بالفنون والتسليم بالخرفات صلاحًا واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفانًا والذلة والمهانة تواضعاً والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضى وتسليماً والتقليد الاعمى لكل متقدم علمًا وايقانًا)

نعم كان هذا كلهُ واكثر منهُ مما نمسك القلم عنهُ وانما سقنا ما ذكرنا معذرة لمن يفهم من الاجانب ان سوء حالنا آت من جهة ديننا وان رضوخنا للجهالة احدى دعائمه كما يتبين من عرض افكارهم في هذا الكتاب والدين براً منهُ . وكيف نطلب منهم حسن الاعتقاد في الاسلام وهم يرون المسلمين يأتون من الاعمال ما لا ينطبق على عقل ولم يقل بهِ شرع اللهمَّ الاَّ اذا كان كما فهموهُ منا . انهم في الحقيقة معذورون اذا نسبوا اعمالنا هذه الى الدين فانهم لا يفرقون بين ما هو منه وما هو بعيد عنه وليس لهم الاَّ ان يعتقدوا بان عملنا مأمور بهِ لا منهي عنه

الى هنا نمسك القلم ونترك القول للمؤلف سائلين القارئ ان يستصحب معهُ في قراآة هذه الترجمة ما قدمناهُ من الملاحظات وبالله الاستعانة وعليهِ الاتكال في صلاح الاعمال

مقدمة المؤلف

كنت ذات يوم اجوب جوف الصحاري في ولاية حوران بين زرقوم وسجير وخلفي ثلاثون فارساً كريماً من اولاد يعقوب يمشون جماعات جماعات لان حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها وتجعل بعضها اذا مسهُ التالي يصهل صهيل الغيظ ثم يلفت وجههُ الى الوراء ويضرب بارجله في الهواء وعما قليل تسكن ثورته وتعود الجياد الى خطاها مطمئنة يسير امام الكل حادٍ على فرس عظيمة بيضاء لا يهدأ لمرآها ساكن الجياد وهو يترنم بما ينعش الجمع من كلام اغلبه مديح في كاتب هذه السطور فكنت فيهم كسلطان يتسابق كل واحدٍ من حاشيتهِ الى ارضائه باستعمال ما حفظ الشرق من اسرار الانحطاط النفسي في مثل تلك المعاملات وكنت اصغى الى اشعارهم ساعات متتابعة بغير ملل وقد وعيت البعض منها وكلها اراجيز محبوكة الاطراف غير تامة المعنى بذاتها فلا تميز بين المادح والممدوح والمخاطب والمتكلم بحيث يصعب علينا معشر الغربيين ادراك مراميها

وكنت ابلغ الخامسة والعشرين من العمر والفصل فصل الشتاء ويومنا يومٌ جميل تنشط الابدان حرارته ويبلغ ضوءه حدّ البهاء وروائحه تنعش السالكين وتجعل المستنشق شاعراً بتمام الحياة يخالجني

مع ذلك احساس آخر هو شغفي بتلك الممدوحة التي كان اسمها
يروح ويغدو في اقوال اولئك الشجعان · وبينما نحن سائرون على هذه
الحالة اذ سكت الشاعر والتفت قائلاً بصوت خشن سيدي الآن
وقت العصر · هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع
الجماعة وصلاة الجماعة مفضلة عند الله في اعتقاد المسلمين كما هي كذلك
عند المسيحيين اما انا فقد ابتعدت عنهم وكنت اود ان لو انشقت
الارض فابتلعتني وجعلت اشاهد البرانس العريضة تنثني وتنفرج
بحركات المصلين واسمعهم يكررون بصوت مرتفع الله اكبر الله اكبر
فكان هذا الاسم الالهي يأخذ من ذهني مأخذاً لم يوجده فيه درس
الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين وكنت اشعر بحرج لست اجد لفظاً
يعبر عنه سببه الحيا والانفعال احس بان اولئك الفرسان الذين كانوا
يتدانون امامي قبل هذه اللحظة يشعرون في صلاتهم بانهم ارفع مني مقاماً
واعز نفساً ولو اني اطعت نفسي لصحت فيهم (انا ايضاً اعتقد بالله
واعرف الصلاة وكيف اعبد) فما اجمل منظر اولئك القوم في نظامهم
لصلاتهم بملابسهم وجيادهم بجانبهم ارسانها على الارض وهي هادئة
كأنها خاشعة للصلاة · تلك هي الخيل التي كان يحبها النبي (صلى
الله عليه وسلم) حبّاً ذهب به الى أنه كان يمسح خياشيمها بطرف
ازاره عملاً بوصية جبريل عليه السلام وكنت أرى نفسي وحيداً في
عرض هذه الصحراء على ما أنا به من اللباس العسكري الضيق الذي

يبرم فيه الجسم الانساني بغير احتشام تلوح عليّ سمات عدم الايمان في مكان هو مسقط رأس الديانات كأنني من الحجر او من الكلاب امام اولئك القوم الذين يكرّرون الى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقاً وايماناً · وبينما انا كذلك اذ جال بخاطري ما ورد في التوراة من ان الله يسكن خيمة سام ويكثر من اولاد يافث · وقد كان الفريقان مجتمعين في ذلك المكان اولئك المصلون الذين هم من ولد سام معجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب ابائهم الله الذي دخل خيمة ابرهيم وانا ابن يافث الذي يمتد ذكره بالحرب والفتوح ولما انتهى بنا الطريق ورجعت الى مكان راحتي جعلت اكتب ما علق بذهني من الافكار فاحسست انني منجذب بحلاوة الاسلام كأنها اول مرة شاهدت في الصحراء قوماً يعبدون خالق الاكوان وذكرت خيام النصارى حيث لا متعبد فيها غير النساء واخذني الغضب من كفر ابناء المغرب وقلة ايمانهم

كنت في سن يستسهل العقل فيه حل المشكلات ويأخذ الاشياء من ظواهرها ويحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب ويعتقد المرء في الامور بغير قيد وهو سنٌ لو انصف اهلوه لما كتبوا وألفوا وكنت أرى ان جمال الدين اصدق شاهد على أنهُ الدين الحق وصرت اكتب في الاسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد

ولو اني اتبعت مجرد الظواهر وقضيت على الامور بغير تأمل

وتدقيق لجاء كتابي مذموماً ورماني المستشرقون بالخفة والطيش كما يرمون بحق بعض مؤلفي الجزائر من الاوروباويين . ذلك ان المشتغلين بالاسلام في هذه الايام فريقان المستشرقون الذين هم من افاضل العلماء ومستعربو الجزائر من الافرنج ايضاً ومما لا شبهة فيهِ ان القسم الاول قد افاد العلم اكثر من القسم الثاني فان اعمالهم انتجت كثيراً من العناصر والمواد التي يسهل بها اليوم وضع تاريخ للاسلام لان ذلك التاريخ لا يزال مع ما تقدم في عالم الغيب وبعدهم يأتي مستعربو الجزائر على نسبة الفرق بين غزارة المادة في العلم وسلامة النظر في الموجودات وهم يعيشون مع المسلمين ويفقهون غور افكارهم ويعلمون حقيقة معيشتهم وكنه ديانتهم معرفة لا تحصل لاحد في غير تلك البلاد وبهذا يرون ان لهم الحق في ان يكتبوا عن الاسلام كالمستشرقين نعم انهم لم يقفوا على جميع ما ألفهُ المسلمون في الحكمة وعلم الكلام ولكني لا أرى ذلك نقصاً كبيراً اذ معرفة حقيقة الاسلام في هذا العصر لا تحتاج الى سعة اطلاع ديني على أن مطالعة جميع الكتب التي وضعت في مبدأ ظهور هذا الدين انما تجب على المؤرخ اكثر من غيره لان علم الكلام وحب الخوض فيهِ قد اندثر منذ القرن الثاني عشر حيث اصبح الدين الاسلامي قوياً متيناً لا تؤثر فيهِ مناقشة الباحثين وتخاصم المنتقدين كما اودت باصول الديانات الاخرى فمن ذلك الحين صار كل مسلم من عالم وجاهل ومن امير وحقير مؤمناً ايماناً لا احتياج لتحكيم العقل

في تحصيلهِ بل هو ايمان وجداني بسيط قوي في النفس متمكن من القلوب وذلك لا يشاهد في الامم المسيحية الاَّ عند المحامين

ومما اوجب الباحثون معرفته على كل مشتغل بالاسلام علم الاسماء المقدسة وهو علم دقيق لا يعرفهُ المستعربون كثيراً ولم يأْتِ بالفائدة التي كانوا يقصدونها منهُ ومع ذلك فان العجب يأْخذ منهم كل مأْخذ اذا قرأُوا ترجمة بسم الله الرحمن الرحيم التي تسبق كل سورة من سور القرآن اذ يظهر من تلك الترجمة ان واضعها اراد الوصول الى اصل معنى اللفظ في الوضع ونسي ان ذلك البحث ربما جرَّ الى فقد المعنى الذي يحضر في الذهن لسماعهِ ومن الواضح ان سعة العلم وغزارة المادة اذا بنيت على الفرض والتخمين لا يحتج بها امام ما اتفق الشعور العام عليهِ قال المستشرقون ان رحمن اسم وضعتهُ الديانة الوثنية المسيحية لاله الشفقة وهو جائز غير ان هذا اللفظ لا يدل عند المسلمين من يوم دخولهِ في لغة الاسلام الاَّ على صفة من صفات الله الذي يعبدونه ولم يوجد واحد من بينهم ذهب الى انه اسم من اسماء الالوهية المعروفة قبل الاسلام فلست أرى حينئذٍ ان المستشرقين مع احترامي لما يقولون قد اكتشفوا على امر يقدح في صدق القرآن وانهُ يلزم لذلك نزع معنى الرفق والحنان من لفظة الرحمن لانه معنى يطابق فكر جميع المسلمين في كل زمان ومكان

ولقد رأَيت من الواجب أن أُبيّن الصفات التي تخولني حق

الكتابة عن الاسلام قبل ان أنشر كتابي هذا . أنا عاشرت العرب ازمانًا طوالاً واشتغلت كثيرًا بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين ومذهبي مذهب مستعربي الجزائر ولذلك اسأل المستشرقين ذوي الاعتبار عفوًا ولينًا واطلب منهم قبل كل شيء ان لا يجمعوا بيني وبين اولئك الذين يميلون الى العرب فيكتبون عن الاسلام ما تلقفوهُ اثناء سياحة قصيرة فجاءَ قولهم قولاً شعريًا حتى ان موسيو (لوازون) لم ينجُ من هذه السقطة بل طاش قلمهُ وجذبتهُ التخيلات فكان ممن يرى كل شيء في الشرق جميلاً وجاءَ رأْيهُ في الاسلام رأْي قوّال لا رأْي باحث حكيم وعليهِ فلست اقصد بكتابي هذا ان أُمجد الاسلام ولكني لما رأَيت انهُ صار من المسائل الكبرى التي اشتغلت بها اذهان الباحثين في العصر الحاضر وأُسست من اجلهِ مجلة علمية في باريس نال بها المسلمون نجاحًا أَدى الى ان المسيحيين ومنهم اولاد الصليبيين يساعدونهم بالمال على اقامة مسجد يعبدون الله فيهِ انتهزت فرصة هذا الميل وأَردت التنبيه الى بعض اغلاط علقت بالافكار عندنا من حيث النبي العربي ودينهِ الاسلامي وهو عمل شاق وموقف حرج اذ من المعلوم كما قيل انهُ لا يرسخ في الاعتقاد اكثر من خطأ الاعتقاد كذلك أَرى انهُ لا يكفي لامة مسيحية متمدنة ان تحترم دين المسلمين من رعاياها بل يجب عليها ان تسعى الى معرفة ذلك الدين كما ينبغي فنحن نضحك اشفاقًا من سماع الاقاصيص التي نقرأُها عن بعض المسلمين

للمسيحيين ونقول اولئك قوم جهلة متعصبون وانهم في بغضهم لنا مخطئون الاّ ان المسيحيين هم كذلك في بغضهم للمسلمين لا يعدلون واشد الاوهام رسوخاً عندنا بالنظر الى الديانة الاسلامية ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت ان يكون بحثي اولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الادبية علني اجد في هذا البحث دليلاً جديدًا على صدقهِ وامانته المتفق تقريباً عليها بين جميع مؤرخي الديانات واكبر المتشيعين للدين المسيحي

الفصل الاول

﴿ صدق محمد (صلى الله عليهِ وسلَّم) ﴾

محمد والاغاني المعروفة باغاني الاشارات – محمد والتاريخ – اصل الاعتقاد – الوحي بالقرآن – ليس محمد مبتدعاً – هل كان على الدوام صديقاً – وفاته

كنت كلما بحثت في الديانات مع صاحب لي من طلبة العلم في تلمسان واراد الهرب من الجدال يجيبني هم يقولون ان لله ولداً وان محمداً لمن الساحرين اجابة مملوءة بالاحتقار كما يجب المعتقد وثنياً يريد ان يشفق عليهِ وذلك مع مبالغته في احترامي وحسن الصلات بيننا وكان يرى ان التثليث خرافة فادحة كسحر محمد وان المسيحيين الذين اخترعوا البدعتين قوم لا ينبغي الجدال معهم ولست ادري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا اقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتي في اغاني القوال من المسيحيين فجميع اغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب في الحروب الصليبية وكلها محشوَّة بالحقد على المسلمين للجهل الكلي بديانتهم وقد نتج عن تلك الاناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الاغلاط في الاذهان ولا يزال بعضها راسخاً الى هذه الايام فكل

ناشد كان يعدّ المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة اوثان مارقين وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم ماهوم ويقال ماهون وبافوميد وماهوميد وهو محمد (صلى الله عليهِ وسلم) ثم (أُبلّين) ثم (ترفاجان) وذهبوا الى ان محمدًا وضع دينه بادعائه الالوهية ومن المستغربات قولهم ان محمدًا الذي هو عدوّ الاصنام ومبيد الاوثان كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلوفنجيون) وان المسلمين لما غلبهم الافرنج وصدوهم الى اسوار سرقسطه عادوا الى اصنامهم فحطموها كما طنطن بهِ احد منشدي ذلك العصر حيث قال (وكان ابلين الههم في مغارة هناك فتراموا عليهِ واوسعوهُ شتماً وسباً وصلبوه من يديه في احد العمدان وجعلوا يدوسونه باقدامهم ويوجعونه ضربًا بالعصي حتى هشموه واما (ماهوم) فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتمشي عليهِ وتلك اهانة لم تصب الهًا قبله) ويظهر ان المسلمين لم يلبثوا ان تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم واصلحوا ما اتلفوه منها ولذلك امر الامبراطور كارلوس بابادتها لما دخل سرقسطه كما جاء في قول ذلك الشاعر (وقد امر الامبراطور الفرنساويين فطافوا جميع انحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها ماهوميد وجميع الاوثان والاصنام) وكذلك يقول (ريشار) في اناشيده وهي جميلة لا شيء من الخراف فيها الا انها زور وبهتان حيث يطلب

من الله ان يوقع الفشل العميم بين (اولئك الذين يعبدون بصورة ماهوم) ثم جعل يحرّض الاشراف على الحرب المقدسة وينصحهم ان ينكسوا اصنام المسلمين (قوموا ونكسوا صنم ماهوميد وترفاجان وصبوهم على النار وقدموهم الى ربكم) وذهبوا الى ان صورة ماهوم كانت تصنع من انفس الاحجار والمعادن باحكم صنع وادق اتقان ومن قرأ وصفه في اناشيد (رولان) كاد يحلف ان ذلك الشاعر انما يصف عن خبر وعيان يقول وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدتها لأيقنت بأنه لايمكن للعقل ان يتصور اجمل منها عظيمة الشكل لطيفة الصنع تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان (ماهوم) من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالابصار قد وضع فوق فيل على جلسة من اجمل المصنوعات خاوياً من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس الاحجار المضيئة يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عزّ عن المثال والنظير) ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدائد وانهزم المسلمون في احدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطلب ربه قال الراوي (فجاء الاله محمد في موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضرباً يسمع له دوي قاصف وبعضهم يغني بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة والكل حولهم يرقصون ويغنون باعلى اصواتهم واقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الديني في انتظاره فلما رآه قام يعبده بخضوع وخشوع) ثم اخذ (ريشار) بعد ذلك يقص كيفية مناجاة

اولئك الوثنيين لذلك الصنم الذي وصفه بالتجويف وان لا شيء في باطنه الاَّ ويرى من الخارج فقال (وقد وضعوا في جوفه عفريتاً استحضره السحرة وصار ينط ويعربد ثم اخذ يتكلم للمسلمين وهم يسمعون) ولقد زاد بغضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامي كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحي فروى (بودوان) في نشيدهِ على الكونتسه (يونتيو) لما ارادت ان تعتنق الاسلام امام صلاح الدين انها قالت (اريد ان أَعبد محمدًا فائتوني بهِ فلما صار بين يديها خرت ساجدة اليه) ويأخذ القارئ من نشيد آخر يظهر انه وضع تتمة لاناشيد (بودوان) وجود الهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم وهما (باراتون) و (جوبين) الا ان الثلاثة الاولين هم الرؤساء ولما رد احد قواد المسيحيين جيش المسلمين الذي خرج من مكة اخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين كما يأتي (وقد جعل الوثنيون يصيحون ويصرخون ويموجون بينهم ويهرجون وينادون باعلى اصواتهم يا (ترفاجان) يا (ماهوم) ومع ذلك يوجد نشيد من اناشيد القرون الوسطى لا يرى فيهِ القارئ رمزًا الى محمد بالصنم وهو للقسيس (اسكندر دو يون) الفهُ سنة ١٢٥٨ ميلادية اخذًا عن مسلم تنصر من ذوي الاعتبار وعد الناس تلك القصة تاريخًا صحيحًا عن ذلك النبي وقد جاء فيها (انهُ من المعلوم ان محمدًا كان عالمًا بطرق المكر والخيانة والخداع) ثم شبههُ باحد الامراء المحاط باتباعهِ ينشر دينه على

ابسط حال حتى اعتقده الناس اكثر مما اعتقدوا حبر رومة

ولقد اطلنا القول في تلك الاضاليل لان تاريخ (اسكندر) المذكور لم يزلها ولانها تركت اثرًا في الاذهان وصل الى اهل هذه الايام وتشبعت به افكارهم في النبي وكتابه

ولو سأل سائل هل كان اولئك المنشدون يعتقدون صحة ما يقولون لاجبناه جواب اهل نورمندة لا ونعم اذ من المحقق ان الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهّل للمنشدين معرفة الدين المحمدي على حقيقته ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في اناشيدهم بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم فاحتاجوا في ذلك الى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم بالاوصاف التي تؤثر في نفوس المنشود لهم على حسب معارفهم واميالهم واذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى الى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين (الباحثين في علم التوحيد) الذين يظهر على كتبهم في ذلك الزمن انهم ميالون الى الاعتدال وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الاقاصيص الخرافية مملوءة بالطعن والشتائم في نبي المسلمين وكان المصلحون (هم البروتستان ايام دعوتهم لاصلاح الدين المسيحي) اشد تعصبًا ضده من غيرهم فقد اعتنى (بيبلياندر) بتشبيه محمد بالشيطان وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه ولسنا نقيم برهانًا على ما نقول غير توجيه نظر القارئ الى مطالعة ما جاء في مقدمة كتاب (ريلان) الذي ألفه سنة ١٧٢١ تحت

عنوان (ما هو السبب في ان الناس عامة لا يعرفون من الديانة المحمدية الاَّ شيئًا يسيرًا) حيث يقول (لو اراد الباحثون ان يصموا مذهبًا او طريقة بوصمة الخزي والعار نسبوها الى محمد فقالوا مذهب محمدي وطريقة محمدية وهكذا) وألف القس (دون مارتينو الفونسو فيقالدو) كتابًا سماهُ سراج الكنيسة المقدسة الذهبي جاءَ فيهِ (ان كتاب محمد لا تلزم قراءته بل يجب ان يسخر بهِ وان يحتقر ويرمى في النار انَّى وُجد ولا يليق ان يحفظه الناس لانه عمل بهيمي) وبعضهم كان لا يقول بحرقه ولكنهُ يرى (من العبث ان يجهد الانسان نفسه ويزيد ايلامها بحفظ هزيئات وأُمور تافهة منشأُها خيالات شخص اختلَّ عقله واضطربت قواه)

واما المسلمون فمن اسمائهم في تلك الكتب البلدة والكسالى والحمير والحمير الوحشية والممقوتون الذين يملاؤن المنزل بالنساء في الليل ويطلقونهنَّ في النهار ولو اردت الاطلاع على جعبة الشتائم والسباب فعليك بكتاب الفهُ احد اليسوعيين وهو (بروشار) وسماهُ مرشد السياحة وقدمه الى الامير (فيليب روقالوا) سنة ١٣٣٢ وذكر فيهِ الاسباب التي تحمله على الدعوة الى حرب صليبية فقال (من ذا الذي لا يزرف عبرات الدمع عند ما يعلم اي الرجال هم قابضون اليوم على تلك البقاع التي هي ميراثنا اولئك قوم لا رب لهم ولا دين يهديهم ولا شرع يرجعون اليهِ ولا عهد ولا حنان اولئك قوم اخساء ادنياء

وهم اعداء لكل حقيقة في الوجود وكل صفاء وكل خير وكل عدل اولئك هم اعداء الصليب الكافرون بالله المضطهدون للمسيحيين المفرطون في نسائهم الفاسقون بالاطفال الظالمون لعجم الحيوانات المخالفون لطبائع البشر القتالون للفضائل المميتون للاخلاق الغارقون في القبائح والخطايا اولئك هم اولياء الشيطان وانصار الدنايا ذوو حقد وبغض ذوو افكار سافلة واعمال سخيفة وعيشة دنيئة واقوالٍ بذيئة وعشرة سوء معديةً لا تنصرف ارادتهم ولا تتجه هممهم الاّ الى اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية اولئك هم القوم الذين ابعدونا عن هاتيك البقاع واذونا في هذه البقعة الصغيرة التي نحن فيها مستهزئين بنا وساخرين بديننا اولئك هم الذين خربوا بيت الله وملكوا المدينة المقدسة التي هي مهبط شرعنا ولوّثوا اماكنها المقدسة المطهرة)

ولم يزل هذا الروح سائدًا عند المسيحيين حتى ان المستشرق (بريدو) الانكليزي الف سنة ١٧٣٣ كتابًا في سيرة النبي عنوانه (حياة ذي البدع محمد) وترجمه بعضهم الى لغتنا وجعل لهُ مقدمة بيّن فيها مقصد المؤلف فقال (ان غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحي الحكيم بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد) اولئك كتّاب ما قصدوا التاريخ ولكنهم ارادوا خدمة) المقصد المسيحي الحكيم (كما يقولون وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم ان يشبعوا خصمهم سباً وشتماً وان يحرفوا في النقل مهما استطاعوا

واراد (داماسين) ان يخالفهم في التأليف لكونه تربى في دمشق الشام وكان مقربًا عند الخلفاء فجعل يرد مذهب الاسلام من غير تعصب لذلك عدَّه بدعة في الديانة المسيحية تقرب من بدعة (اريوس) ومع ذلك فلم تؤثّر عبارته في رأي الغربيين بل ظلوا يعتقدون الخرافات في النبي وقرآنه وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائمًا في تأييدها وتمكينها من الاذهان وهي سياسة جعلت الناس عندنا يهزأون بالدين الاسلامي واغنت البابوات عن حربه حربًا صحيحًا فقد كانت الكنيسة اللاتينية في القرن الثامن مشتغلة بأمور أُخرى لان الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضرين هما احزاب النفس الواحدة في جسدين واحزاب النفس في جسم واحد

ولم يبدأ في البحث عن الاسلام بغير تعصب ولا تشيع الاَّ في زمننا هذا ففي القرن التاسع عشر اخذ الباحثون ينظرون الى المسئلة نظر الناقد البصير وكان من وراء ذلك ان افترق الناس في القرآن الى معجب بهِ وطاعن فيهِ ومع ذلك لا نزال نرى في لسان هذا القسم الاخير ما تشم منهُ رائحة تأثرهم بالافكار الماضية قال موسيو (دروختي) في سياحته في بلاد العرب التي نشرها سنة ١٨٧٨ عن النبي (انهُ عربي خائن دني) وقد نسي ان هذه الالفاظ التي يشمئز منها السامع لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى

واوَّل ما دار البحث فيهِ مسئلة صدق النبي في رسالته وقد قلنا

ان ذلك متفق عليهِ بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب ومعلوم انهُ لا ارتباط بين هذه المسئلة وبين كون القرآن كتاباً منزلاً ولسنا نحتاج في اثبات صدق النبي الى اكثر من اثبات انهُ كان مقتنعاً بصحة رسالته وحقيقة نبوته اما الغرض من تلك الرسالة في الاصل فهو اقامة اله واحد مقام عبادة الاوثان التي كانت عليها قبيلته مدة ظهوره وبيان ذلك ان اسماعيل لما حنقت عليهِ ساره وطرد من عائلة ابيهِ توجهً الى بلاد العرب ونقل اليها ديانة ابيهِ ابراهيم الاَّ انهُ لم يبقَ بين الغرب من تلك الديانة سوى شيء قليل يشبه الخيال اذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بان رب ابراهيم هو رب عزيز لا يقبل لهُ شريكاً كما حصل ذلك لبني اسرائيل ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيئاً فشيئاً وتحل محله عبادة الالهة التي كانت معروفة في أُمم أُخرى حتى تنوسي دين اسماعيل تماماً ثم دخلت اليهودية في بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام ولكن الديانة المسيحية لم تعلق في تلك البقاع حتى ان (تيث) قس بصره اعترف في القرن الرابع بان معيشة العربّ الرحالة النقالة تمنع من انتشار تلك الديانة في بحيث جزيرة العرب

تلك هي حالة الدين ببلاد العرب الى القرن السابع وقد بحث فيها الكتَّاب كل على حسب امياله وكما اعتقد لذلك تناقضت اقوالهم في اعتبارها والحكم على اهلها فقال موسيو (رونان) لا يوجد في تاريخ التمدن كلهُ صورة اجمل من حالة بلاد العرب قبل الاسلام ومن رأيهِ

ان القبائل في تلك البقاع كانت تدين باليهودية او بالدين المسيحي وكانت مشتغلة بحركة دينية عظيمة وقال موسيو (بارتيلي سانت هيلير) لو صح ان اولئك الاقوام كانوا على جانب عظيم من التمدن كما يدعون لما احتاجوا الى تلك التعاليم الادبية التي تقشعر ابداننا لسماعها (حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت) ومن رأي هذا المؤلف ان العرب كانت امة متبربرة في حالة من التوحش تقرب من حالة العبرانيين ايام بعث فيهم موسى بمثل ما تقدم من التحاريم · ولست اريد الخوض في ترجيح احد الرائيين ولكني ارى ان التوسط في الامر اقرب الى الصواب وان امة العرب قبل النبي كانت وثنية على وجه العموم وكان مذهب توحيد الاله يخطر في الاذهان رويدًا رويدًا وكان المتخصصون لهذا الاعتقاد فريق يقال لهم الاحناف بقوا على مذهب ابراهيم (عليه السلام) واما المسيحيون فكانوا فرقًا كثيرة كلها تعتقد بمذهب التكثير (تعدد الالهة) وتلقى محمد مذهب اولئك الاحناف بحالة سطحية لكن لما كانت نفس ذلك النبي مفطورة على التشبع بالدين تكيف هذا المذهب في وجدانهِ حتى صار اعتقادًا لم تصل اليه نفس قبله الا قليلاً وهو ذلك الاعتقاد المتين الذي احدث انقلابًا كليًا في النوع البشري ومن الخطإ ان نبحث عن هذا المبدإ العميم فيضه في غير طريقة الاحناف لان محمدًا ما كان يقرأُ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مرارًا نبيًا اميًا

وهو وصف لم يعارضه فيهِ احد من معاصريه ولا شك أنهُ يستحيل على رجل في الشرق ان يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لان حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على ان القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الاقطار ولم يكن بمكة قارئ او كاتب سوى رجل واحد ذكره (جارسين دي تاسي) في كتابه الذي طبعه سنة ١٨٧٤ كذلك من الخطإِ مع معرفة اخلاق الشرقيين ان يستدل على معرفة النبي للقراءة والكتابة باختيار (السيدة) خديجة (رضي الله عنها) اياه لمتاجرها في الشام ولم تكن لتعهد اليهِ اعمالها ان كان جاهلاً غير متعلم فإنَّا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرؤُن ولا يكتبون وهم في الغالب اكثرهم امانة وصدقاً

ثبت اذن مما تقدم ان محمداً (صلى الله عليهِ وسلم) لم يقرأْ كتاباً مقدساً ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليهِ خلافاً لما ذهب اليهِ (اسكندر دويون) حيث يقول (انهُ كان يعرف دين اليسوع قراءة وكتابة) نعم ان البحث عن معرفة المصادر التي عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة ديانة المسيح او الديانة اليهودية او ديانة عبَّاد الكواكب قد يكون مفيداً لمعرفة الموافقات التي جاءت بين القرآن و بين التوراة الاَّ انهُ بحث ثانوي اذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضاً من الكتب المقدسة الاخرى لبقي الامر مشكلاً كما كان عليهِ في معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الديني وكيف وجدفيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية

الله حتى استولى عليه روحاً وجسماً ولقد نعلم انه مرَّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلاماً نفسية كبرى قبل ان يخبر برسالته فقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين ومن اجل ذلك احتاج الى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الاوثان ومذهب تعدد الالهة الذي ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكناً من قلبه وكان وجود هذين المذهبين اشبه بإبرة في جسمه (صلى الله عليه وسلم) ولكي ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله (تعالى) اعتكف في جبل حرى وارخى العنان لفكره يجول في بحار التأملات عابدًا متهجدًا ومضت عليه بهذه الحالة ليالٍ من ليالي هاتيك البقاع التي تملأ النفس انشراحاً حتى جاء عنها في لسان العامة ان الملائكة تسأل ربها لو اذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليلهم على الارض إعجاباً بجمال الليل فيها وشوقاً الى صفاته وجلاله

ولعمري فبمَ كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الاربعين وهو في ريعان الذكاء ومن اولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيل وقوّة الادراك لا بوضع المقدمات وتعليق النتائج عليها ما كان الاّ ان يقول مرارًا ويعيد تكرارًا هذه الكلمات (الله احد الله احد) كلمات ردّدها المسلمون اجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد ولم يزل عقله مشتغلاً حتى ظهر هذا الفكر في كلامه على صور مختلفة جاءت في القرآن (لم يلد ولم يولد ولم

يكن لهُ شريك ولم يكن لهُ كفوءًا احد) وكانت مترادفات اللغة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامي الذي دل عليهِ ومن تلك الافكار وتلك العبادة تولدت كلمة الاسلام (لا إله الاَّ الله)

ذلك هو اصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد منزه عن النقائص يكاد العقل يتصوَّره وهو اعتقاد قوي يؤمن بهِ المسلمون على الدوام ويمتازون بهِ على غيرهم من القبائل والشعوب اولئك حقًّا هم المؤمنون كما يسمون انفسهم بالسنتهم ٠ ولقد يستحيل ان يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبي (صلى الله عليهِ وسلم) من مطالعته التوراة والانجيل اذ لو قرأ تلك الكتب لردَّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو اعظم مظهر في حياته وهو بذاته اكبر دليل على صدقه في رسالته وامانته في نبوَّته

واما مسئلة الوحي بالقرآن فهي اكثر اشكالاً واكبر تعقيدًا لان الباحثين لم يهتدوا الى حلها حلاً مرضيًّا والعقل يحار كيف يتأتى ان تصدر تلك الآيات عن رجل أُميّ وقد اعترف الشرق قاطبة بانها آيات يعجز فكر بني الانسان عن الاتيان بمثلها لفظًا ومعنًى آيات لما سمعها عقبة ابن ربيعة خار في جمالها وكفى رفيع عبارتها لاقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها وفاضت اعين نجاشي الحبشة بالدموع لما

تلى عليهِ جعفر بن ابي طالب سورة زكرياً وما جاءَ في ولادة يحيى وصاح القسس ان هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى قال ناقل هذه الرواية (كوزان دي بيرسوفال) فلما كان اليوم الثاني طلب النجاشي جعفر واشار اليهِ بتلاوة ما في القرآن عن المسيح ففعل واستغرب الملك لما سمع ان المسيح عبد الله ورسوله وروح منهُ نزل في أُمه مريم ثم تناول قضيباً دقيقاً كان امامهُ وقال لجعفر ان الفرق بين ما سمعناهُ منك الآن عن عيسى و بين ما نقوله دياتنا عنهُ لا يزيد عن سمك هذا القضيب وقد قوي ذلك القضيب فمنع الحبشة من الاسلام وجعلها مسيحية الى الآن) لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا ان نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لافكارنا ومغايرته لما ربيت عليهِ الامم عندنا غير انهُ لا ينبغي ان يكون ذلك سبباً في معارضة تأْثيره في عقول العرب ولقد اصاب (جان جاك روسيو) حيث يقول (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأُ القرآن و يضحك منهُ ولو انهُ سمع محمداً (صلى الله عليهِ) يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الاذان ويؤثر في القلوب والتفت الى انهُ كلما بدت احكامه ايدها بقوَّة البيان وما أُوتيه من بلاغة اللسان لخر ساجداً على الارض وناداهُ ايها النبي رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار او مواقع التهلكة والاخطار فنحن من اجلك نود الموت او الانتصار قال (بولانقيلير) اني لاعترف بانهُ من الصعب ان يظن

الانسان ولا يتحير في امره ان قوّة الفصاحة الانسانية تؤثر ذلك التاثير خصوصاً وانها تصدر عالية بغير ضعف ابدًا وتجدد رفيعة معجزة اذ نقصر دون تمثيلها رجال الارض وملائكة السماء وقد اشار المؤلف في كتابه الى الآية الاتية

(ام يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا مَن استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين — فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا ان ما انزل بعلم الله وان لا اله الاَّ هو)٠

وكيف يعقل ان النبي أَلف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع انها في الازمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها الاَّ القوم العالمون ولقد اعجب من موسيو (رينارد دوزي) في كتابه تاريخ الاسلام حيث يقول في الصحيفة العشرين بعد المائة (ان في القرآن اغلاطاً نحوية كثيرة وان تلك الاغلاط جعلت فيما بعد من جملة قواعد النحو او مستثنيات من قواعده) ولعمري اي مصدر اعتمد عليه ذلك المؤلف فيما ادعى مع اننا لم نعهد كتباً نحوية قبل الاسلام ولو صح وجود شيءٍ منها فلا بد انه كان عزيزًا نادرًا وقد شاهدنا ان اناساً وما كان اكثرهم امبين قاموا في امة العرب وادعوا النبوة منهم مسيلمة الذي زعم انه قرين محمد اتى بسور سخر العرب منها ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك ان يستولي على الافكار ويأخذ بمجامع القلوب ٠ اتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته وهو لا يزال

الى يومنا هذا سرًّا من الاسرار التي تعذر فك طلاسمها ولن يسبر غور هذا السرّ المكنون الاّ من يصدق بانه منزل من الله اللهمّ الاّ اذا اعتمدنا على قول مجدي الديانة المسيحية مما كنا نرتاح اليهِ ايام شبيبتنا وهو يرجع الى ان القرآن تأليف فاتح اراد تأييد سلطته فجمع من كتب اليهود والمسيحيين قانونًا اودعه بعض قواعد الادب والدين واضاف اليهِ قصص الوقائع العظيمة لتأييد رسالته) وعلى كل حال اي سواء توصلنا الى معرفة حقيقة القرآن ام لا فلا ينكر احد ان مظهر محمد كان مظهر نبوّة بالفعل بقطع النظر عن صدق تلك النبوّة وعدم صدقها لان النبوّة من حيث هي عبارة عن قيام رجل يملي على الناس امر ربه ويعتقد حقًّا ان ما يقوله آتٍ من عند الله وهو تعريف. اعلم ان المسيحيين لا يقبلونه سواء كانوا من المتكلمين او الحكماء الباحثين الاّ انني ما اردت بهِ التوفيق بينهما بل قصدت بهِ تمهيدًا للايضاحات التي اريد ان اقدمها للقرّاء في عرض رسالتي

وعلى ما تقدم اقول ان لظهور النبوّة سببين مختلفين فاما ان تكون صادرة عن وحي سماوي او عن اتقاد في الذهن واشتداد في حركة النفس الباطنية والمتأثر باحد هذين السببين ينفعل بهِ قهرًا غير مختار فهو صادق على الحالين وتكون النبوّة حقيقية او كاذبة بحسب المؤثر فيها فان كان الهيًّا فالاوّل والاّ فالثاني ولو رجعنا الى ما وضحه الحكماء عن النبوّة ولم يقبله المتكلمون من المسيحيين لا مكننا الوقوف

على حالة مشيد دعائم الاسلام وجزمنا بأنهُ لم يكن من المبتدعين فمحمد كما قال (ايوالد) عن انبياء بني اسرائيل اعتقد ان روحاً من الله استولت على لبه فلم يعد يشعر بان لهُ فكرًا خاصاً بل انه أُوتيه من عند ربه واختفت في نظره انانيته ولم يعد يسمع غير صوت ذات فوق ذاته) ومن الصعب ان نقف على حقيقة سماعه اصوت جبريل (عليهِ السلام) هل كان ذلك في الحلم او غيبوبة في عالم التصوُّرات الالهية على ان معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسئلة لان الصدق حاصل في كل حال

كذلك لو قال قائل ان القرآن ليس كلام الله بل كلام محمد (صلى الله عليهِ وسلم) فلا بد لنا على الحالين من الاعتراف بان تلك الآيات البينات لا تصدر عن مبتدع ابدًا خلافاً لرأْي من ذهب الى تكذيب نبوّته ولعل رأْيهم جاء من ضيق اللغة التي تلجئنا الى ان نرمي بالكذب نبياً هو في الحقيقة شخص مليء امانة وصدقاً

ولقد نعلم ان الصوت الذي كان يسمعه نبي المسلمين شبيه بالصوت الذي ايقظ ايوانس من قبله فقال لهُ (يا ايها المدّثر قم فانذر وربك فكبّر وثيابك فطهّر والرجز فاهجر (فلما سمع ذلك تلكأ وتباطأ واستعصى على هذا النداء فضعفت صحته واستولى عليهِ الهلع كرجل يخاف ان يذهب لبه ثم انتهى بهِ الحال الى ان صدع بأمر ربه وجعل يبشر الناس وحصل على شيء من الراحة وان لم ينلها بتمامها لانهُ كان كثير التألم

كما يؤخذ ذلك من سورة هود والقارعة والحاقة

ومن ذلك الحين اخذت شفتاهُ تنطلق بالفاظ بعضها اشد قوة وابعد مرمى من بعض والافكار تتدفق من فمهِ على الدوام الى ان يقف لسانهُ ولا يطيعهُ الصوت ولا يجد من الالفاظ ما يعبر بهِ عن فكرٍ قد ارتفع عن مدارك الانسان وسما عن أن يترجمهُ قلم او لسان وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجههِ بادية فظن بعضهم ان به جنة وهو رأي باطل لانه بدأ رسالته بعد الاربعين ولم يشاهد عليه قبل ذلك اي اعتلال في الجسم او اضطراب في القوة المادية وليس من الناس من عرف الناس جميع احواله في حياته كلها مثل النبي (صلعم) فلقد وصل المحدثون عنهُ الى انهم كانوا يعدون الشعر الابيض في لحيته ولو انهُ كان مريضاً لما أخفى مرضه لان المرض في مثل تلك الاحوال يعتبر امرًا سماويًا عند الشرقيين وليست حالة محمد (صلعم) في انفعالاتهِ وتأثراتهِ بحالة ذي جنة بل كانت مثل التي قال نبي بني اسرائيل في وصفها (لقد شعرت بان قلبي انكسر بين اضلعي وارتعشت مني العظام وصرت كالنشوان لما قام بي من الشعور عند سماع صوت الله واقوالهِ المقدسة)

اذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين كتابهم وليس هو نبي سلاب كما يقول موسيو (سايوس) نعم قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع الا ان سببهُ ميسور المعرفة ذلك ان

محمدًا كان يلصق ديانة الاسلام بالديانتين المسيحية واليهودية فالبحث مباح فيما اذا كان مذهبهُ صحيحًا او موضوعًا اتخذه ليؤيد بهِ الحقيقة الدينية من حيث هي ولكن لا نسلم انكار هذه الحقيقة وحينئذٍ لا عجب اذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع خصوصاً اذا لاحظنا ان القرآن جاء ليتمها كما ان النبي (صلى الله عليه وسلم) خاتم الانبياء والمرسلين

والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثلاث فنقول ان دين الانبياء كان كلهُ واحدًا فهم متحدون في المذهب منذ آدم الى محمد وقد نزلت ثلاث كتب سماوية وهي الزبور والتوراة والقرآن . والقرآن بالنسبة الى التوراة كالتوراة بالنسبة الى الزبور او ان محمدًا بالنظر الى عيسى كعيسى بالنظر الى موسى ولكن الامر الذي تهم معرفتهُ هو ان القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد (صلعم) ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً . اذا تقرَّر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة فمحمد كعيسى قال انه بعث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من امره الابتعاد عمن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بانه يعيد على الناس ما نزل على الانبياء من قبله وكان يسمع صوتًا من السماء يقول لهُ (انَّا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم

واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورًا ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيماً) وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون (وما ارسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزُبُر وانزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) على ان بعض المشابهات لا تحتاج الى مثل هذا التفسير اذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت بهِ نفوس الانبياء من بني اسرائيل وكان يعبد الله الذي عبدوه فلا عجب ان تشابهت الفاظ التضرعات وتجانست اصوات الدعاء

اذن لا يمكن ان ننكر على محمد (صلعم) في الدور الاول من حياتهِ كمال ايمانهِ واخلاص صدقهِ فاما الايمان فلم يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني وما أُوتيه من النصر كان من شأنه ان يقوّيه على الايمان لولا ان الاعتقاد كلهُ قد بلغ منهُ مبلغاً لا محل للزيادة فيهِ ولم يكن فيهِ عيب بل ان ما نسبوه اليهِ من هذا القبيل لا يؤثر بشيءٍ على سيرتهِ الطاهرة فما كان يميل الى الزخارف ولم يكن شحيحاً بل كان كما قال ابو الفداء يستدرّ اللبن من نعاجه بنفسهِ ويجلس على التراب ويرتق ثيابه ونعاله بيده ويلبسها مرقعة مرتقة وكان قنوعاً خرج من

هذه الدار كما رواه ابو هريرة ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياتهِ هذا هو النبي الذي قال عنهُ المنشدون من النصارى (انهُ كان منهمكا يأتي المغيبات في الحانات) تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الاعلى في بلاد العرب ولكنهُ لم يجنح الى الاستبداد فيها فلم يكن له حاشيةولم يتخذ وزيرًا ولاحشماً وقد احتقر المال والمعالي و بلغ من السلطان منتهاه ولم يكن له من علامات الامارة والملك سوى قضيب من الفضة مكتوب عليهِ (محمد رسول الله) ولم يكن فيهِ عيب الاّ كما خلق الله الانسان قال (رونان) (خلق الانسان ضعيفاً فلا يقوى على احتمال الرسالة الربانية زمناً طويلاً ومن لم تطل مدة رسالته فهو من البررة المعصومين) ومع ذلك فرونان لا يعتقد بصدق رسالة النبي العربي

على انهُ لو صح انهُ كان فيهِ عيوب اكبر مما نسب اليهِ لما قدح ذلك في رسالتهِ لان هبة النبوة كمواهب الوحي لا تستلزم حتماً خلو من اختص بها فلقد هفى داوود مع بنت صابا ونحن نعلم ان من ذرّيتهِ المباركة انبياء بني اسرائيل وان الله ينزل حكمه آياتٍ تحار فيها الافكار ومهما اجتهدنا في ادراك كل معنى من معانيهِ فإنّا بهِ جاهلون فلقد وعد ملوك بني اسرائيل ان يرسل المسيح من اصلابهم ورأينا ان عيسى ولدَ على غير ما عهدوا

على ان محمدًا (صلعم) كان يقول عن نفسه انهُ يخشى العذاب ويسأل الله الغفران وكم من مرة شوهدت على وجهه علائم

الهلع وما بهِ من هول رسالته عند ما كان يتلو على الناس آيات الفزع الاكبر

هذا ما كان من صدقه وامانته في السنين الاولى من بعثته حتى سماهُ معاصروه بالامين واما حالهُ في بقية مدتهِ بعد ان صار رئيساً سياسياً فالاستدلال عليهِ ادق وادعى الى طول البحث والتنقيب قال (رينارد دوزي) يكاد ان يكون من المستحيل الجزم بان محمدًا كان في آخر حياته يعتقد بصدق رسالته اما في الدور الاوّل فاعتقاده وصدقه لا شك فيهما) والادلة كثيرة من الجانبين ووضع المسئلة على هذه الكيفية هو الذي فرق بين الباحثين وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأيٍ رجحهُ تبع امياله وما يشتهي الاَّ ان الناقد المنصف لا يجب عليهِ ان يرجح قولاً على آخر بدون ملاحظة القرائن التي تتبع الاثنين ولكن الناس كما وصفهم موسيو (مونور) محتاجونَ الى الايقان والاعتقاد وهم في احتياجهم هذا يميلون الى من يلقي عليهم المسائل كانها حقيقة ثابتة ويمقتون من ينهاهم عن الاعتقاد بشيءٍ او نفيه مطلقًا بغير تثبت ولا دليل ولست ممن يدعي الترفع عن هذا التقريع غير انني اقول انهُ بفرض صحة المذهبين وان صدق النبي في آخر حياته وعدمه سيان في الوضوح والدليل فلا يزال عندنا سبيل آخر للوصول الى الحقيقة او القرب منها أَلا وهو علم النفس وحركاتها وهذا العلم وان لم يبلغ بعد الدرجة التي تزيل كل شبهة علقت بالافكار لكنهُ مع ذلك يوصلنا

الى الايقان بان من الانبياء من لا يتيسر للباحثين ان يجزموا بشيء في امرهم كأن يؤكدوا انهم صادقون او انهم جروا في اعمالهم على ما يخالف الواقع وهم يعلمون كما يفعل السياسيون وما من كاتب ولا باحث يستطيع ان يجزم بان الامبراطور كونستنتان الذي رفعهُ القسس مكاناً علياً في المعابد واختصوه بالمواهب الالهية كان صادقاً بعد انتصاره في قنطرة (ميلفيوس) ولكن محمداً قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الاحد كما فعل الملك الروماني وايمانه كان حقاً ثابتاً على الدوام لذلك لم تتغير حميته ولم تفتر عزيمته فقد انتهى كما بدأ ولو انهُ جال بفكره ساعة من زمانه شك في صدق رسالته لكفى بنصره الدائم مزيلاً لهذهِ الغمة ومؤيداً لهُ في صحة نبوّته وصدق رسالته

وفي الصدق درجات فليتبينها الباحثون وليفقهوها قبل ان يحكموا بالبدع وهم مخطئون ولقد عانى محمد (صلعم) كثيراً مع بني قومهِ اذ كانوا منكرين ولم يأخذهم على غرة منهم بعد ان صاروا مؤمنين نحن لا نصدق بما يقولون بل نرى ان قومهِ كانوا في استعمال امانتهِ من المتطرفين ولئن اعجم لهم القول حيناً في مخاطبتهم فذلك لانهُ يعز وجود من يحب الحق ولا تلجئهُ الحوادث الى الاعجام طلباً لتقريرهِ في ذهن قوم جاحدين ان الذين ينكرون صدق محمد في آخر حياتهِ لا يستطيعون ان ينكروا عليهِ انهُ بقي الى آخر لحظة منها نبياً رسولاً شديد التمسك

بمذهبهِ وانهُ فارق الدنيا موقنًا باداء رسالتهِ فلقد اتفق موءرخو العرب طرًّا على الحوادث التي تخللت ايامه الاخيرة واورثونا عنهم ما كان من حركاتهِ وسكناتهِ بقول واحد ومعنى لا يتغير مما يبرهن على صدق حديثهم وامانتهم في نقلهم ولولا زيغ المنشدين من النصارى وكثرة تخيلهم لما قالوا (ان محمد قد مات تنهشهُ الخنازير اذ وجدوه نشوان وليس عندهُ معين ولا نصير) تلك جريمة لا تغتفر ومما يستغرب لهُ المطالع ان يجد حكاية هذا الموت الفاضح في تاريخ الحرب الصليبية الاولى لمؤلفهِ (جيبير دي نوجان) وهو معدود من المؤرخين الذين لا يميلون الى التحريف غير انهُ أتى بهذهِ الاكذوبة وزاد عليها ان المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ فلنسدل ثوب النسيان على هذهِ الاقاصيص المحزنة ولنقرأ كيفية وفاة النبي في كتب المؤرخين الصادقين

لما قربت المنية خارت قواه وخرج الى الحج بمكة في شهر مارس سنة ٦٣٢ ميلادية وهي حجة الوداع وخطب في الناس على منبر المسجد المقدس فقال ربِّ اني اديت رسالتي وبلغت امانتي (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشونِ اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينًا) ثم رجع الى المدينة واقام ببيت عائشة زوجته المصطفاة برضاء من زوجاته ولما احس بقرب الاجل ذكر الفقراء فانهُ لم يرغب طول حياته في المال بل كان كلما

جمع اليهِ شيئاً منهُ انفقهُ في الصدقات وكان اعطى عائشة يسيرًا لتحفظهُ فلما حضرهُ المرض امر بانفاقهِ على المعوزين لساعتهِ وغاب في سنة ولما افاق سألها ان كانت أنفذت امرهُ فاجابتهُ كلا فامر بالنقود واشار الى العائلات المعوزات فوزع عليهم وقال (الآن استراح قلبي فانني كنت اخشى ان ألاقي ربي وانا املك هذا المال)

وكان في مرضهِ يخرج كل يوم ليصلي الظهر بالناس وآخر يوم خرج فيهِ هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ وكانت مشيته مضطربة فتوكأ على الفضل بن العباس وعلي بن ابي طالب وقصد منبر الخطابة الذي كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة وحمد الله واثنى عليه ثم خطب في المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال (ايها الذين تسمعون قولي ان كنت ضربت احدكم على ظهره فدونه ظهري فليضربه وان كنت اسأت سمعة احد فلينتقم من سمعتي وان كنت سلبت احدًا ماله فاليه مالي يقتص منه وهو في حل من غضبي فان الغل بعيد عن قلبي) ثم نزل من المنبر وصلى بالجماعة ولما اراد الانصراف امسك بهِ رجل من ازاره وطلب منهُ ثلاثة دراهم دينًا لهُ فأداها على الفور قائلاً (لخزى الدنيا اهون من خرى الاخرة) ثم دعا لمن حارب معهُ في احد وسأل الله لهم الرحمة والغفران وكان مشهد النبي بين المؤمنين في ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلحون على وجهه تأثير السم الذي شربه من يد يهودية خيبر وقلوبهم منفطرة من الوجد

عليه ذلك انهُ لما كان في واقعة خيبر قدمت اليهِ يهودية اسمها زينب شاة مشوية اضافت اليها سماً فاخذ منهُ النبي قطعة واحدة بين شفتيهِ وأحس بانها مسمومة فالقاها. ثم لما حضرتهُ الوفاة بعد حين كان يقول (ما زالت تعاودني اكلة خيبر) وكان ابو بكر نفسهُ يبكي ويقول للرسول (هلاَّ افتدينا روحك بارواحنا) ثم اوصله الصحابة الى بيت عائشة واضطجع تعباً مهزولاً وصار المرض يشتد عليهِ فتخلف عن الصلاة بالمسلمين وقيل لهُ قد جاء وقت الظهر فاشار الى ابي بكر ليصلي بالناس فكان من وراء هذه الاشارة خلافة ابي بكر بعد النبي . واخبرت عائشة رضي الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت (كانت رأس رسول الله مسندة الى صدري وبقربه قدر ماء وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ويقول (ربِّ اعني على تحمُّل سكرات الموت ادنُ مني يا جبريل ربِّ اغفر لي واجمع بيني وبين اصدقائي في السماء ثم ثقلت رأسه ومال ثانية الى صدري)

اما مخلفاته فبيت بناه بيده وبضع نياق آلت الى بيت المال لانهُ عليهِ الصلاة والسلام قال (نحن معاشر الانبياء لا نورث)

الى هنا نقصر القول عن ذات النبي فما اردنا ان نطيل فيها الاَّ لنعرف حقيقة تلك النفس المتشبعة بالدين اذ الدين يدعو الى الدين وكان من الوجوب دقة البحث عن اعتقادهِ (صلى الله عليهِ وسلم) قبل ان نتتبع دينه كيف انتشر ولا يزال ينتشر في الوجود

الفصل الثاني

﴿ الاسلام في زمن الفتح ومدة حكم العرب ﴾

استعصاء بلاد العرب على الاسلام – القديس (اوغستان) ومعاقبة اهل البدع – انتشار الاسلام وملاينته في الشرق – اعتناق الاسلام بمصر في زمن بني اميه – الاسلام في الاندلس – اضطهاد قرطبة – تعذيب (فلورا) العذراء – المضطهدون في مراكش – نتائج ملاينة الدين الاسلامي

قال القديس (بولس) يطلب اليهود معجزات ليصدقوا واليونان ادلة ليؤمنوا واما العرب فانهم آمنوا بغير معجزات ولا ادلة اذ النبي كان يقول لجلسائه على الدوام انهُ آدمي مثلهم وانهُ مرسل اليهم وانهُ مجرد عن كل سلطان في المعجزات (قل انما انا بشرٌ مثلكم يوحى اليّ انما الهكم اله واحد) (قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضرًّا الاَّ ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الاَّ نذير وبشير لقوم يؤمنون)

واما البراهين فنحن نعلم مقدار بعد عقله عن التخيلات الذهنية كالامة التي بعث فيها الاَّ اننا رأينا الاسلام في وقعة بدر سنة ٦٢٤ ميلادية وليس لهُ من الانصار الاَّ ثلثمائة واربعة عشر نفرًا فلم يمضِ عليه قرن واحد حتى اجتاز جبال (الالب) وتوسط البلاد الفرنساوية

وقد اسلمت الشام والعجم ومصر وبلاد الغرب من مراكش الى الجزائر الى تونس الى طرابلس . نعم قد سبق هذا الانتشار العظيم عناءٌ شديد واضطراب في العمل كثير واضطهاد للناس كبير شأن كل ديانة عامة في مبدأ ظهورها ولكن الاسلام لم يلبث ان تغلب على اكبر العثرات فمهد الصعاب حتى صار لا يعرف حاجزاً ولا مانعاً

وما اشبه الدين في انتشاره بامتداد السائلات الطبيعية فهو نتيجة مؤثرين مؤثر داخلي يسمى المقاوم ومؤثر خارجي وهو المحرّك والاوّل خفيٌّ لا يظهر اثره وان كان هو الذي يلتقط جميع الحرارة الواصلة الى الجسم فعمله الوحيد التغلب على مقاومة العناصر فاذا انحلت جاءَ المؤثر الخارجي فنشأ عنهُ مع اختلاف يسير تمدد الجسم العظيم الذي يسمى تبخراً وقد احتاج الاسلام في الانتشار الى التغلب على قوّة العوائد والتقاليد التي وجدها وهو مانع يصادف كل دين جديد الاّ انه كان قوياً للغاية عند العرب لتمسكهم بعاداتهم واعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة وكان من الصعب جدّاً ان يعتنقوا ديناً يرى اباءهم غير مطهرين ومن الموانع التي قوّت العرب في استعصائهم على الاسلام ما اشتمل عليهِ من مبدإٍ قهر النفوس وتذليلها للواحد المعبود فالقول بالمساواة بين الناس طرّاً امامه كان ثقيلاً على آذان العرب مخالفاً لتقاليدهم الاوّلية حتى يدينوا اليهِ بغير عناء ولذلك فان الاسلام سنة ٦٣٢ ميلادية ايام وفاة النبي لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب الاّ انه كان

بين المسلمين الاوّلين رجال من العظماء اعترف بفضلهم الاب (بروغلي) حيث قال (ان الذين آمنوا بمحمد كانوا قوماً صادقين ذوي دراية وذكاء منهم ابو بكر وعمر رجلان توليا زمام مملكة فسيحة الارجاء فاحسنا سياستها وكانا ذوي ثبات وعدل وقناعة وفضل وشدة عزيمة وكانا ارفع قدراً وابعد مرمى من القياصرة والحكام الذين حاربوهما) ومن الغريب ان الدين الاسلامي لم يلقَ في طريقه من المقاومات الاّ ما قابله بها العرب الوثنيون فانهم كما قدمنا كانوا مدفوعين الى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشعائرهم القديمة وحبهم لحرّيتهم واستقلالهم فكان جميع تلك القبائل المنثورة وهم رحّل في الوديان غيورون على اطلاقهم في الفلوات لا يعرفون من الحكم الاّ سوق الماشية الى المرعى ومحاربة بعضهم في كل آن وتكوين أُمة واحدة منهم اكبر عقبة قامت في وجه النبي ولولا قوّة الدين الجديد لما بقيت تلك الوحدة زمناً طويلاً على انها لم تدم الاّ وقتاً وعادت بعد ذلك الى التفرُّق والانقسام غير ان القبائل بعد تفرُّق وحدتها لا تزال متمسكة بدينها الجديد وصار الاسم العربي ذا المقام الاوّل بين الاسماء في جميع اطراف المسكونة وصار كل ينتسب الى عائلة من عائلات الجزيرة خصوصاً عائلة قريش ذات المجد الباذخ والشرف الرفيع وهذا هو السبب في اطلاق اسم العرب في التاريخ على أُمور كثيرة فقالوا عائلة كذا عربية وأُمة كذا عربية وتمدن كذا عربي مع انهُ لا جامعة بينها وبين بلاد العرب سوى الاسلام

ولم تتوحد قبائل العرب لتصير أُمة واحدة من غير اراقة الدماء بل قامت حروب داخلية اذكتها الاحقاد القديمة وجلبت على المتحاربين خسائر جلى وكان النبي (صلى الله عليهِ وسلم) مهتماً كثيراً بفتح العرب كلها لظهوره بينهم وكون بلاد العرب صارت مطلع شمس الاسلام حيث ترسل اشعة نورها في جميع الاقطار وكان اشياعه يسمعونه على الدوام يكرّر عليهم هذا النداء (لا يكون دينان في العرب ابدًا) ولذلك نزلت في القبائل المعاندة تلك الآيات التي تنذر بغضب الله (يا ايها النبي جاهدِ الكفّارَ والمنافقين واغلظ عليهم ومأْواهم جهنم وبئس المصير) (يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غِلظةً واعلموا ان الله مع المتقين ذلك بانهم كرهوا ما انزل الله فاحبط اعمالهم (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب اوزارها) وقد نظر بعضهم الى هذه الآيات وما يماثلها فاتهموا النبي بالتعصب أفما كان يجب عليهِ ان يحارب بقوة السلاح المعاندين من الوثنيين ليبيد تلك الديانة الى الابد من بلاد العرب كما انها هي التي اخنت على مذهب التوحيد مذهب الخليل قبل الاسلام وان يجعل بين المؤمنين وبين عبادة الاصنام حدًّا فلا يرجعوا اليها (قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)

ولقد فرق جميع مفسري القرآن على الدوام بين الوثنيين وبقية

الكافرين فالمجوسي على قول خليل هو الوثني الذي لا يعترف المسلمون بديانته كما يعترفون بدين اليهود والنصارى وليس له مقام في دارهم وان ادى الجزية لانها غير مقبولة منه ويجب عليه ان يهاجر في ثلاثة ايام من يوم تكليفه بذلك او ان يعتنق الاسلام او ان يموت على اننا نرى في الكتاب الخامس من الزبور امرًا بالتشدد في معاملة الوثنيين قال (اذا ادخلك ربك في ارض لتملكها وقد اباد امماً كثيرة من قبلك فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ولا تعطهم عهدًا ولا تأخذنك عليهم شفقة ابدًا) . كذلك امر الله اسرائيل باستئصال سكان المدائن التي اختص بها قومه ولم يأمر بالاشفاق الاّ على المدن البعيدة التي لا تصل عدواهم اليه ثم ان شدة اعتقاد النبي وقوّة ايمانه بان القرآن انزل اليه ليخرج الناس من الظلمات الى النور سببان يؤيدانه في استعمال الحرب فكان مثل اشعيا يخدم ربه بابادة الوثنيين كذلك اعتناق بعض القبائل للاسلام في مبدإ ظهوره كان اوجب عداوات شتى اشتعلت بسببها نيران الفتن في بلاد العرب اجمعها وما كان ينبغي للنبي حباً في السلام ان يترك الباطل يعلو على كلمة الحق المبين

كتب القديس اوغستان وعصره ليس ببعيد عنا كتابه الشهير الى الكونت (بونيفاس) يشير عليه فيه باستعمال القوة لردع اهل البدع من المسيحيين وردهم الى الديانة النصرانية (راجع ترجمة هذا الخطاب في الملحق الثاني) وقد جاء فيه تمثيل المنشقين ببغال تعض

وترفس قوماً يعالجونها مما اصابها وهم ملجئون الى تعذيبها ليتمكنوا من تضميد جراحها وان الطفل الصغير لا تتيسر تربيته بغير السياط والايلام الجسماني فالاضطهاد الذي يستعمل ضد الاشرار لردهم الى طريق الخير اكبر خير يصنع معهم نعم لا يشك احد في ان حمل الناس على طاعة الله بالحسنى وبالتعليم اولى من الجائهم اليها بالارهاب والتعذيب الاّ ان الناس رجلان فمنهم من يسهل اقناعه بالمناظرة فيرجع الى الحق ومنهم الغبي المكابر ولقد دلتنا التجارب ولا تزال ترينا ان من الناس من ينفع الخوف في تعليمهم او في استعمال ما تعلموه على الوجه الذي ينبغي ثم اخذ الكاتب يشرح للمكتوب اليه ان الاضطهاد عدل وظلم فهو عدل من الانقياء ضد الاشقياء وظلم من هولاء على الاولين قال (تضطهد الكنيسة من تحب ويضطهد الاشرار من يكرهون فهي تريد جمع الشمل وهم يفرقون وهي تجري خلف الهدى وهم للضلال يسارعون) ولقد كان يتعذر ان يلاقي الناس تساهلاً ولينا من الاسلام في مبدإ ظهوره لما فيه من المخالفة لثورة الدين في نفس النبي واصحابه الاولين ولكن بعد ان دانت العرب وآمنت بالقرآن واستنارت القلوب بنور الدين الحنيف برز المسلمون في ثوب جديد امام اهل الارض قاطبة هو المسالمة وحرية الافكار في المعاملات وتتابعت آيات القرآن تأمر بالمحاسبة بعد تلك الآيات التي كانت تنذر القبائل المارقة (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من

النبي) (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونًا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)

هكذا كانت تعاليم النبي بعد اسلام العرب وقد اقتفى اثره فيها الخلفاء من بعدهِ وذلك يحملنا على القول كما قال (روبنسون) ان شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم وهذه المحبة هي التي دفعت العرب في طريق الفتح وهو سبب لا حرج فيهِ فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهِ المظفرة اذ اغاروا على الشام وساروا سير الصواعق الى افريقيا الشمالية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلانطيقي ولم يتركوا اثرًا للعسف في طريقهم الا ما كان لا بد منهُ في كل حرب وقتال فلم يقتلوا امة ابت الاسلام ولو قارنا بين اغارة المتبربرين وبين اغارة المسلمين التي تلتها لوجدنا الثانية اخف ضررًا واكثر لينًا فكلما التقى المسلمون بامة خيروها بين واحد من ثلاث الاسلام او الجزية او تحكيم الحرب حتى تضع اوزارها هكذا كانت الاوامر التي زود بها ابو بكر الصديق خالد ابن الوليد لما انفذه الى الشام وقد سرت هذهِ الاوامر الاَّ في الوثنيين لما تقدم بيانه من انهم كانوا يعاملون بغير معاملة الامم الاخرى ومما يحسن هنا ان نقابل بين اوامر ابي بكر (رضي الله عنه) وبين تعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بحصار المدائن ومعاملة الكلدانيين قال (اذا اقتربت

من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الامان فان قبلته فقد سلم كل من فيها وان ابت وباداً تك بالعدوان فشدد الحصار عليها ومتى وفقك الله للظفر بها فاحطم راس كل ذكر فيها بحد الحسام)

ولم يلقَ المسلمون من نصارى آسيا وافريقيا الا مقاومة خفيفة اخلدوا بعدها الى الدين الجديد ولقد مضى زمن طويل وهم ينسبون سقوط تلك الكنائس في حوزة الاسلام مع ما كان لها من المكانة الرفيعة قبله مثل كنائس (قرطاجنة) الى ما استعمله المسلمون معهم من العنف والتعصب وعدم المحاسنة وذهب معاصرو هذا الفتح من المؤلفين الى تفسيره بما يلائم احوال زمنهم فنسبوا سرعة تقدم الاسلام الى ما استحقه المسيحيون من غضب الله عليهم فاراد ان يعاقبهم على زيغهم واراد قوم من المتعبدين ان يؤيدوا هذه الحجة وان يحرضوا الناس على التوبة فبالغوا في ذلك الزيغ وشددوا النكير على النصارى وصاروا يوعزون بان الجيوش الاسلامية انما هي الآلة التي اراد الله ان ينتقم منهم بواسطتها ذلك لان الفتح الاسلامي وتفرُّق الكنائس المسيحية في آسيا وافريقيا حادثتان متلازمتان فلا لوم على المؤرخين في الجمع بينهما حتى ان الفاتحين انفسهم ما كانوا يفرقون بين اعتناق الاسلام والرضوخ للقوّة الظافرة ولكن الخطأ عند الجميع هو تعليقهم الثانية على الاولى مع انه لا يوجد بينهما الاّ تفاعل من بعض الوجوه فكما ان الفتح الاسلامي حمل النصارى على ترك دينهم كذلك تفرُّق

ذات بينهم سهّل الفتح للمسلمين

انكر (آريوس) الوهية عيسى فكان بذلك طليعة لنبي المسلمين اذ فتح الطريق الى الاسلام لان الاسلام ما كان يقول عن المسيح الاً انه آخر الرسل قبل محمد (صلى عليه وسلم) وبعد ان ظهر لم يقم احد بطعن يذكر ضد مذهب التثليث بل جرى الناس عليه بالاجماع اثني عشر قرناً متتالية حتى صار عاماً ولم يعد الباحثون غير المتدينين يجرأون على نبذهِ من بين الديانات القائلة بالتوحيد لما يلزمه من تعدد ذات الاله ولذلك كان من خوارق العادات قيام اسقف الاسكندرية آريوس في وجه الدين المسيحي حتى ارتجت لهُ اركان ذلك الدين واستولى اليأس على قلوب المسيحيين المخلصين وصار القديس (جيروم) يتنهد الصعداء قائلاً (لقد اندهش الكون من صيرورة الناس كفاراً لا يعتقدون بتجسم الاب في الابن) ومع ان المسيحيين اتباع (نيس) تمكنوا من التغلب على هذا المذهب الجديد فقد نتج عن هذا الخلاف انشقاق عظيم في كنائس افريقيا وآسيا وظهر الاسلام يخطو خطاهُ الواسعة فلم يرَ فيهِ اولئك المتنافسون ديناً جديداً بل قبلوهُ مذهباً مسيحياً

ولانتشار الاسلام ورضوخ الامم لسلطانهِ سبب آخر في هاتين القارتين آسيا وافريقيا الشمالية هو استبداد القسطنطينية فانه كان قد بلغ منتهى العسف ووصل جور الحكام الى درجة ازهقت النفوس

فلما جاء الاسلام تراموا اليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الاموال لانه كلما أسلمت عشيرة رفع عنها اثقال المغارم ورد اليها مالها المسلوب ومن لم يقبل شريعة القرآن عومل هذه المعاملة عينها بلا قيد غير اداء الجزية وكانت شيئاً يسيراً (العشر) او جزءاً من اثني عشر وبذلك امنوا في ظل الدين الجديد ولم يتعرض اليهم احد من دعاته في دينهم ولم يفرق بين اصلي في المسيحية ومنشق عنها وهذه المعاملة هي التي جاء بها القرآن وجرى عليها الخلفاء الاولون فكان اليهود والمسيحيون يسمون ذميين وهم ثلاثة ذميون ومستأمنون ومحاربون فالاول منهم من سكن بلاد المسلمين ودان لسلطة الحاكم الاسلامي وادى الجزية اليه يعبد الله على دينه ولا يكره على الاسلام و يخضع لقوانين النظام والامن العام و يرجع الى دينه في الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث الا اذا اشترك معه مسلم فالدين الاسلامي ومن الخطإ الفاحش استعمال لفظة الذمي في معنى الخسة والجبانة لان معناها الحقيقي (المؤمّن) بتشديد الميم الثانية وفتحها

والمستأمن هو الغريب العابر السبيل وهو يعيش تحت حماية المعاهدات والقوانين الدولية العامة واما المحارب فهو من كان في بلاد تجاهر بالعداوة للاسلام او لم تتعاقد مع المسلمين على ما يضمن لاهلها الامان في ديارهم فان وجد في بلد مسلم وشهر السلاح في وجهها خيّر بين الاسلام او الاعدام وما عدا ذلك فهو آمن ان ادى الجزية قال

علي رضي الله عنه (ما كانت الجزية الا ليتساوى دم الذمي بدم المسلم وماله بماله) وكان من وراء هذه المسالمة ولين المعاملة تقدم الاسلام حثيثاً وسهولة استعلاء فاتحيه لما سبقه من ظلم اكاسرة المملكة الشرقية التي بغضها الناس وسئموا الحياة منها

هذا واذا انتقلنا من الفتح الاول للاسلام الى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناه اكثر محاسنة وانعم ملمساً بين مسيحيي الشرق على الاطلاق فما عارض العرب ابداً شعائر الدين المسيحي بل بقيت رومة نفسها حرة في المراسلات مع الاساقفة الذين ما زالوا يرعون الأمة الخالية وفي سنة ١٠٥٣ ميلادية كتب البابا ليون التاسع الى مسيحيي افريقيا يوصيهم باعتبار اسقف (قرطاجنة) مطراناً عاماً بينهم وكان الوئام مستحكماً بين المسلمين والمسيحيين حتى ان (غريغوريوس) السابع كتب الى المسيحيين يلومهم على المحاكمة مع اسقفهم امام المسلمين وكان ذلك في ٥ سبتمبر سنة ١٠٧٣ ومع هذه المسالمة العظيمة من جانب المنتصر الى المغلوب ضعفت الديانة النصرانية جداً ثم زالت بالمرة من شمال افريقيا . على ان الاسلام لم يكن له عمال مخصوصون يقومون بالدعوة اليه وتعليم مباديه كما في الديانة المسيحية ولو انه كان له اناس قوامون لسهل علينا اشكال معرفة السبب في تقدمه القريب فانا شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركباً من القسس والوهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد ان يكون هو

قد باشر فتح المدائن والاقاليم بجيوشهِ التي كان يصلي بها الامم حرباً تجعل الولدان شيباً ولكننا لا نعلم للاسلام (مجمعاً دينياً) ولا رسلاً واحباراً وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره احد عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما اودع في القرآن من مواهب التأثير والاخذ بالالباب نعم قد اعتنق الاسلام قوم مشوا وراء منافعهم ولكنهم قليلون بجانب من اسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح وكان ذلك من اسهل الامور لبساطة الدين وكفاية النطق بكلمة التوحيد ليصير قائلها من المسلمين · ومع ذلك فلم نرَ بعد استقرار الحكومة الاسلامية على محور النظام عشائر من المسيحيين تركوا دينهم جملة واحدة بل انه صار من اللازم ان يثبت الاسلام لمن ارادهُ على يد القاضي ويحرر بذلك محضر يذكر فيهِ ان المسيحي اعتنق الاسلام عن اعتقاد تام غير خائف ولا مكره اذ لا يجوز ان يكره احد على تغيير دينهِ (راجع المحضر المذكور في الملحق الثالث)[1]

وقد كثر دخول المسيحيين في الدين الاسلامي ايام حكم الامويين حتى ان الخلفاء لم ينظروا اليهِ بعين الرضا لما كان ينشأ عنهُ من الضرر ببيت المـال فقد نزلت ضرائب مصر مدة خلافة معاوية الى النصف عما كانت عليه في خلافة عثمان بسبب دخول عدد عديد من

(١) هذا ليس بواجب شرعاً ولعل المؤلف اخذ ما يقول من سريان العادة بهِ في هذه الازمان

الاقباط في الاسلام ومن اجل ذلك ضيق الخلفاء باب الدخول في الدين الجديد فلم يعفوا الراغبين فيهِ من آداء الجزية يدلنا عليهِ ما كتبهُ حيان الى عمر الثاني وهو عمر بن عبد العزيز اتقى الخلفاء الامويين حيث قال لهُ في خطابهِ (اذا دام الحال في مصر على ما هو فيهِ الآن اصبح مسيحيو هذهِ البلاد كلهم مسلمين وخسرت الخلافة حينئذٍ ما تجبيه منهم من الاموال)

فلما قرأ الخليفة هذا الكتاب انفذ لساعتهِ الى حيان رسولاً وقال لهُ (اذا لقيت حياناً فاضربهُ ثلاثين سوطاً على أُم رأسهِ عقاباً لهُ على كتابه وقل لهُ ان يرفع الجزية عن كل رجل يعتنق الاسلام فاني أَرى سعادتي في ان يصبح المسيحيون أَجمعون من المسلمين لان الله ارسل نبيهِ ليبلغ رسالتهُ لا ليجمع الضرائب والاموال) وليس في خوف المسلمين على نفاد النقود من بيت المال ما يوجب استغرابنا لان الضرائب في الجزائر تصيب مسلميها فهي اكثر جداً من التي تطلب من المسيحيين فلو تنصر مسلمو الجزائر ومنحوا جميع الامتيازات المخوّلة للمسيحيين لاصبحنا في حيرة شديدة من قلة المال

ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في بلاد الاندلس حتى صاروا في حالة اهنأ من التي كانوا عليها ايام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (فيزيجو) ويقول (دوزي) ان هذا الفتح لم يكن مضرًّا بالاندلس وماحصل من الاضطراب والهرج بعده لم

يلبث ان زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية في تلك البلاد وقد ابقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير وكم من اندلسي بقي على دينه ولكن اعجبته طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة وآدابها وصار القسس يلومنهم على ترك ألحان الكنيسة والتعلق باشعار الظافرين وكانت حريّة الاديان بالغة منتهاها · لذلك لما اضطهدت اوروبا الموسويين لجأوا الى خلفاء الاندلس في (قرطبة) لكن لما دخل الملك (كارلوس) في سراقسبطه امر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين ونحن نعلم ان المسيحيين ايام الحروب الصليبية مادخلوا بلاداً الاّ واعملوا السيف في يهودها ومسلميها وذلك يؤيد ان اليهود انما وجدوا مجيراً وملجأً في الاسلام فان كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم لا الى ما يوجد بين الاثنين من الجامعة في الاصل والجنس واللغة والدين كما ادعاه (افيديكور شايكين)

ولم يطلب المسلمون من مسيحيي الاندلس الاّ ما فرضوه على غيرهم وهو الجزية ويحسن بي ان اذكر هنا نادرة رواها احد مؤرخي العرب لكونها تدلنا على ارائهم في الجزية وما كان بين المسلمين والنصارى من

العلائق والروابط (كان لفقيه من فقهاء قرطبة جار مسيحي يسلم عليهِ كلما لاقاهُ في طريقه بقوله اطال الله عمرك فسمعه ذات يوم بعض المتشددين في التمسك بالقرآن ولاموهُ على دعائه لجاره النصراني بمثل هذا الدعاء فلم يحفل الفقيه بلامهم واجابهم بسكينة انني بقولي الى نصراني اطال الله بقاك اريد ان يفسح لهُ في الاجل ليؤدي الجزية زمناً طويلاً والظاهر ان الفقيه كان مصافياً للمسيحي وانهُ اراد التخلص من عتب اللائمين فاسكتهم بهذا الجواب . وقصص العرب والاندلسيين محشوة بمثل هذه النادرة مما يدل على حصول المودة الاكيدة بين الفريقين . فما هو مبالغ فيهِ اذن تعظيم الضغينة التي كانت بين الامتين أما رأينا الخلفاء انفسهم في الشام والاندلس يتخذون لهم نصحاء من المسيحيين ويرفعونهم الى اعلى الدرجات وكان المسلمون يشكون من ذلك علناً ويرددون هذه الحكمة البديهية التي نزلت على النبيّ (صلى الله عليهِ وسلم) (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانهُ منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين)

وذهب العلماء الى تحريم مصافاة المسيحيين[1] وقالوا بعدم جواز ولايتهم في المناصب الاَّ ان اوامر الدين لا تقوى على الضرورة فتولى

(١) الآية لا تدل الاَّ على منع الولاية وليس في الشريعة ما يحرّم المصافاة كما سبق له بيانه

المسيحيين مناصب في الاسلام كان ضربة لازب عقب الفتح لعدم تعود العرب على سياسة الامم فكانت ادارة ممالكهم من اصعب الامور لديهم ووجب لذلك استخدام المسيحيين الاً ان اولئك الموظفين كانوا يشوهون بوجودهم في المناصب وحدة الاسلام وقد سماهم المحدثون من العرب (قذى حقيقياً في اعين الاسلام) وكان بغض المسلمين اليهم مسبباً في الغالب من جورهم في الاحكام لا من مخالفتهم في الدين

وليس من غرضي ان آتي على تاريخ المسيحيين في الممالك الاسلامية ايام القرون الوسطى ولكن من البديهي انهُ لا بد من ان يكون حصل بين الفريقين تعدٍ واعتساف كما يحصل المد والجزر في البحر الاَّ ان رأى المؤرخ لا يأتيهِ من جمع الحوادث مجردة عن ظروفها بل من نظرهِ في اسباب تلك الحوادث والوقوف على كيفية ظهورها وانا قد قرأت التاريخ وكان رأيي بعد ذلك ان معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة وعلى حسن مسايرة ولطف مجاملة وهو احساس لم يشاهد في غير المسلمين اذ ذاك خصوصاً وان الشفقة والحنان كانا عنوان الضعف عند الاوروباويين وهذهِ حقيقة لا أرى وجهاً للطعن فيها على وجه العموم . على انهُ لا يسعني ان اترك ذكر حادث عظيم الشأن ذلك ان الكنيسة الاندلسية تخيلت سنة ٨٥١ انها على شفا جرف الاضطهاد من المسلمين فبينما عامة المسيحيين في قرطبة يقيمون شعائر دينهم مطمئنين ولا يشكون من

حكومة العرب كان القليل منهم يتميز من الغيظ ضدهم بما هيجه القسس والرهبان في صدورهم من الغل وما ملأُوا به ضمائرهم من الحقد والبغضاء وقد امتاز من بينهم (ايلوغو) وكان قساً في قرطبة في عنفوان شبيبتهِ حتى انهُ احتاج في كسر ثورة نفسهِ الى قهرها بالصوم والسهر ووهب نفسهُ للموت حباً في المسيح فانساهُ هذا الميل كل شهوة دنيوية وكان يجتمع دائماً بمبغضي الاسلام ويخطب فيهم حتى اهاج ضمائرهم لقوّة بيانهِ وهاموا جميعاً يطلبون الموت فداءً لدينهم

الاندلسي حاد التخيل سهل الاعتقاد بالاوهام وبينما القاضي في مجلسهِ بمدينة قرطبة اذ دخل عليه راهب يقال لهُ اسحاق وكان كاتباً لاحد امراء العرب وعلى وجههِ سمات التهيج الذهني وعيناهُ حائرتان فلما صار بين يديهِ قال حضرت لاعتنق الاسلام فأمرهُ القاضي ان ينطق بالشهادتين فاندفع يسب النبي والدين سباً شنيعاً فظنهُ القاضي سكران او مختل الشعور وتردد في الحكم باعدامهِ الاَّ ان اسحاق لم يرجع من اول مرة بل استمر على شتائمهِ حتى اضطر القاضي ان يحكم عليه بالموت على ما بهِ من الحلم طوعاً لاشارة الشرع اذ يقضي بالاعدام على من يسب الرسول واعدم اسحاق في ٥ يونيه سنة ٨٥١ وهو يعترف بالمسيح ويسب محمداً ومن ذلك الحين انفتح الباب امام كل شخص يظن نفسهُ معذباً واراد كل واحد ان يذهب الى المحكمة ليسب محمداً ويموت فتقاطروا اليها افواجاً افواجاً حتى تعب الحجاب من ردهم وكان

القاضي يصم الأذن كي لا يحكم عليهم بالاعدام وعقلاء المسلمين مشفقون على هؤلاء المساكين آسفون على ان دينهم يأمرهم باعدامهم ويظنونهم من المجانين وقد بلغ عدد الذين حكم عليهم بالقتل احد عشر في شهرين واتخذ (ايلوغو) ذلك دليلاً على انتصاره لانهُ هو الذي اوجد خيال الاضطهاد في الاذهان واستحق بذلك ان يخلد ذكرهُ في الكنائس . ومع هذا كان عقلاء المسيحيين يرون اولئك المتعصبين قوماً أرادوا الانتحار ويجاهرون بالتنديد على اعمالهم وكان (ايلوغو) وصاحبه (الفارو) يرمونهم بالخيانة لعدم اقدامهم على سب النبي ودينه ثم عظم الهياج في كنائس الاندلس واستولى القلق على حاشية الخليفة فامر الامير عبد الرحمن الثاني بجمع رؤساء القسس وطلب منهم الفتوى فيما هو حاصل من المسيحيين فلم يتعرضوا للماضي وقالوا بالمنع في المستقبل وتقرَّر ان لا يحضر مسيحي امام القاضي الاَّ اذا دعي اليهِ فانقادوا آسفين ولكن ثورة الخواطر استمرت في الكنائس الى سنة ٨٥٩ وانتهى هذا الدور الذي سماهُ (ايلوغو) زمن الاضطهاد في قرطبة وتبعهُ في ذلك غيرهُ من المؤرخين ومن تخلى عن الاغراض لا يرى في ذلك الاَّ ان قوماً خاطروا بانفسهم فذهبت ضحيَّة الاوهام ولكنهُ لم يحصل من المسلمين اضطهاد مطلقاً . ودليلنا على ذلك كتاب (ايلوغو) نفسهُ وكتب من جاء من بعدهُ فانها كلها تنطق بان المسلمين لم يبدأوا بالشر بل ثورة المسيحيين وتعديهم هما اللذان كانا السبب فيما

اصابهم ومن اراد ان يطالع تلك الكتب فجزاؤهُ من تلاوتها ان يقف على حكاية احدى العذارى التي كانت تسمى (فلورا)

ولدت فلورا من زوجين مختلفين ديناً وجنساً وتيتمت صغيرة فربتها أُمها على الدين المسيحي وكان لها اخ شديد الاسلام فشكاها الى القاضي وعذرت تعذيرًا شديدًا بالسياط حتى تقطعت بشرة رأسها من الخلف وكانت ذات حسن وجمال (باهرين) كما ان ابويها كانا من جنسين عظيمين واتفق ان جراحها زادت في حسنها واهتم بها اشياع (ايلوغو) وصاروا يذهبون لمشاهدتها في المحكمة ويعجبون بشجاعتها في تمسكها بدينها وقدذهب (ايلوغو) بنفسه لزيارتها فكشفت لهُ عن جراح رأسها وشاهدها بغير تلك الشعور التي كانت تزينها فتأثر التقي الصالح (ايلوغو) لمرآها واشتغل قلبه بحبها غير انهُ حب طاهر كما كانت البنت بكرًا ثم وضع يده على الجروح وود لو تمكن من شفائها بين شفتيه ولكنهُ لم يتمكن فانصرف عنها مكتئباً فكورًا وكانت فلورا تعيش في عزلة عن نظر المسلمين ولا تخرج من مخبئها الاَّ الى الكنيسة وهنالك تعرفت باحدى العذارى واسمها مريم وكان لها اخ حكم عليهِ بالموت وهي تريد ان تفعل كما فعل وكانت هذه المعرفة سبباً في ان كل واحدة منها اهاجت ضميرأُختها حتى وصلتا الى درجة احبتا فيها الموت فذهبتا مسرورتين الى المحكمة لتشتما محمدًا امام القاضي الاَّ ان القاضي اشفق عليها لشبابها وجمالها واجل اعدامها

ثم امر لهما بالسجن · ولما كان الثبات من اصعب الفضائل احتمالاً سيما على الطباع الشديدة التأثر ومضى على البنتين اشهر طوال وهما في السجن تهددان بالفحش والفجور ضعفت منهما العزائم بعد ان طلبتا الموت بقلب ثابت ولكن (ايلوغو) ما كان لينسى تلك التي القت في قلبه شعوراً يقرب من العشق والهيام يوم ان كشفت لهُ عن رأسها واتفق انهُ سجن ايضاً لمخالفته ما قرّره القسس لدى الخليفة فسهل عليهِ ان يراها وكان لذلك أثر شديد في قلبه لكن الدين كان لهُ جماحاً شديدًا واخذ يشجع البنت على الثبات والتعلق باهداب المسيح حتى اعدها ثانية الى تحمل الآلام · إلاّ ان قلبهُ مع ما هو عليهِ من التأثر بالدين كان يشعر بأمر دنيوي واحساس غريب ذلك ان (ايلوغو) كان يحزن كثيراً لمفارقة فلورا ولكنهُ ضاعف في حرمان نفسه بالصوم والجوع واراد الله ان لا يطيل عليهِ هذا العذاب ونفذ الموت في البنتين يوم ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥٣ واطلق من بعدهما صراح (ايلوغو) فعين قساً في (توليد) ومات مقضياً عليهِ في ١١ مارث سنة ٨٥٩

ولم تنتهِ هذهِ الثورة من اسبانيا الاّ في آخر القرن التاسع ومع ذلك حصلت ثورة دينية تشابه ما تقدم بعد ثلاثة اجيال في (اشبيليا) ذلك ان القديس (فرنسوا داسيز) كان ارسل بعض اخوة من اشياعه لنشر الدين المسيحي في بلاد المغرب وكان اوّل عمل أتاهُ اولئك المرسلون ان دخلوا جامعاً في اشبيليا والمسلمون يصلون وجعلوا ينشرون

الانجيل و يعظون الناس بالدين المسيحي فطردوا ولكنهم ذهبوا الى سراي الملك وجعلوا يطعنون على القرآن فحكم عليهم بالسجن في منارة فاستعلوها وصاروا يدعون الناس الى عبادة الدين المسيحي فلم يرَ السلطان بدًّا من نفيهم فارسلهم الى مراكش فلم يزدهم ذلك الاَّ تشدداً فيما كانوا يفعلون ولم تنفع فيهم شفاعة (دون بيترو) مع علو مكانتهِ عند الامير المراكشي فقتلوا في ١٦ يناير سنة ١٢٢٠

ولقد اطلنا القول في مسالمة المسلمين عند انتشار دينهم في الغرب لان الضد ثابت في اذهان المسيحيين ولا يزال مستحكماً من نفوسهم الى يومنا هذا مع ما اظهرهُ المؤرخون ومن طافوا بلاد الشرق من مخالفتهِ للواقع قال (ميشو) في تاريخ الحروب الصليبيَّة (لما استولى عمر على مدينة اورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضررًا مطلقاً ولكن لما استولى المسيحيون على تلك المدينة قتلوا المسلمين ولم يشفقوا واحرقوا اليهود حرقاً) وقال الحبر (ميشون) (مما يؤسف عليهِ جدًّا بالنسبة الى المسيحيين ان تأتيهم المسالمة وحسن المعاملة من المسلمين مع ان المسالمة هي اكبر الخيرات بين بعض الأمم و بعضها) وقد انتشر الاسلام شرقي بلاد العرب في جميع القارة الاسيوية بين القرن الثاني عشر والرابع عشر ولم ينشأ عنهُ عسف ولا حروب حتى ان حكام المسلمين انفسهم احترموا مدينة (بيناريس) لاعتبارها عند الهنديين مدينة مقدسة مع ان اهلها كانوا من البراهمة تقريباً . و بالجملة فان الاسلام ما دخل بلدا

الاَّ وصار ذا المقام الاول بين الديانات المسيحية من غير ان يتعرض لمحوها

وعلى هذا يتحقق ان الدين الاسلامي لم ينتشر بالعنف والقوّة بل الاقرب للصواب ان يقال ان كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا سبباً في سقوط المملكة العربية ولقد يعجب المؤَرخون من سرعة انتشار الاسلام حتى بلغ نهر (اللوار) في فرنسا ويتساءلون ما الذي كان يصير اليه حال اوروبا اذا لم يقف (كارلوس مارتل) في وجه المسلمين في سهول (يواتييه) ونحن نرى ان هذا السؤال موضوع وضعاً مقلوباً والاولى ان يقال ماذا كان يصير اليهِ حال اوروبا المسيحية لو كان المسلمون متعصبين لان انكسارهم في يواتييه ليس سبباً كبيرًا يكفي لان يعوق الاسلام عن الانتشار كما اصاب في الاشارة اليهِ موسيو (مرسييه) وخسارة مرة في الحرب لا تنتج عادة مثل هذهِ النتيجة الكبرى فعادة الحرب ان تكون سجالاً وكم من كسرة شفعت بنصر عظيم وقد علل موسيو (مرسييه) انسحاب العرب نهائياً من اوروبا بعد تلك الحرب بالثورة التي قامت بين سكان المغرب لانها منعت عن المسلمين المدد الذي كان يأْتيهم من تلك الاقطار وكانت العمدة في حروبهم على عساكرها وهو سبب قوي في الواقع لكننا لا ننسى ان نضيف اليهِ تطرف المسلمين في المحاسنة فانهُ سهل العصيان ومهد لبعض عائلات المغرب المستقلة طريق الخروج عن الجامعة في

بلاد الاندلس و بلاد المغرب وانتهى الامر مع تلك المحاسنة الى انحلال عناصر المملكة العربية ومن المظنون ان المسلمين لو عاملوا الاندلسيين مثل ما فعل المسيحيون بالام الساكسونية و (الوانديه) لاخلدت الى الاسلام واستقرّت عليهِ لانها مع تمتعها بحرية دينها المسيحي كانت كثيرة الانشقاق والاحزاب

وما لنا ولهذه الظنون والتخمينات وامامنا امر واحد ينبغي الوقوف عنده وهو ان ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الامم اليهودية والمسيحية والوثنية في افريقيا الشمالية وفي قسم عظيم من اسيا حتى انهُ وجد في بلاد الاندلس من المسيحيين المتنورين من تركوا دينهم حباً في الاسلام كل هذا بغير اكراه الاّ ما كان من لوازم الحروب وسيادة حكومة الفاتحين ومن دون ان يكون للاسلام دعاة وقوام مخصوصون وهو مما يقنعنا بان في الاسلام جاذبية وقوّة انتشار سنبحث فيما بعد عن سببها الحقيقي لانهُ لا يزال ينتشر حتى الآن . وقبل ان نبحث عن تلك الاسباب ننبه القارئ الى ان لا يعد من جملتها كما ذهب البعض اليهِ ان الدين الاسلامي ينتشر لكونه ديناً مادياً اكثر مما هو دين ادبي فهو يبيح تعدد الزوجات ويبشر اصحابه بالتنعم في اللذائذ الشهوية في جنات بالغ الوصاف في نعوتها . وهذا هو الذي اتخذه اعداء هذا الدين مطعناً عليهِ زمناً طويلاً كذلك سنأتي بشيءٍ في القضاء والقدر لان منهم من رآه سبباً مهماً لانتشار الاسلام وعلة الشجاعة التي امتاز بها

المسلم بجملته لا يعبأ بالموت في مواقف الحروب

الفصل الثالث

﴿ تعدد الزوجات ﴾

تعدد الزوجات قبل الاسلام – تعدد الزوجات في
القرآن – الحشمة عند المسلمين

يرى الناس في اكثر الازمان الوسطى ان اكبر عمل اتى بهِ النبي هو اباحة تعدد الزوجات لانهُ توصل بذلك الى استجلاب الرجال وتطرف (بيرون) فقال والنساء لانه وعدهم بتعدد الازواج واعتمد القصاصون على هذه الروايات الكاذبة فوصفوا الاسلام بانه (دين الجاموس والجمال وجميع الحيوانات) وقال (رونان) في كتابهِ ابن رشد انهُ (دين الخنازير او القوم المنهمكين في الشهوات) وتعدد الزوجات يجرح اخلاقنا المتمدنة وعوائدنا الدينية على الخصوص فلا نكاد نفقههُ في شريعة موسى وهي ايضاً شريعة الهية كدين المسيح . قال الاب بروغلي انها ديانة يصعب ادراك مرادها وان الله حللها في ظروف مخصوصة يستحيل علينا معرفتها وكأني بهِ وبامثالهِ يخشون على الدين المسيحي من مجاورة ديانتين منزلتين مثلهُ وفيهما آداب تغاير ما جاء بهِ ولعمري لست أرى وجهاً يمنعنا من ان نعتقد في الشارع الالهي من

الحكمة ما نعتقده في الشارع الوضعي فشرائع البشر تحتاط في نصوصها وتلاحظ الزمان والمكان في تقرير احكامها وليس من داع يلجئنا الى ان نحرم على الشارع الالهي مثل هذا الاحتياط · وذلك هو رأي احد عمد المتكلمين موسيو (دولست) حيث يقول ان اول شريعة ادبية انزلها الله على الناس كانت موافقة لاحوالهم ملائمة لزمانهم وما كانوا عليه من درجة الآداب · وفي آداب الساميين نقص يوجد مع اصل الخلقة لا يمكن جبره مدى الايام وهو كثرة شهوتهم وذلك عيب ادبي لا محالة الا انه برهان على قوة الجسم وسلامة الجنس فالذكر من الشرقيين اكثر قوة ونشاطاً من الغربي · ولذلك قال بعض المشتغلين بعلم طبائع الامم ان تعدد الزوجات امر من ضروريات الامم الشرقية لما فيهم من القوة العظيمة ومن الغرائب الالهية التي تحار في ادراكها الافهام ان الغربي مع ميله الى اعتقاد تعدد الالهة كان على الدوام يأبى الزواج باكثر من امرأة واحدة · والشرقي الذي لا يعبد غير إله واحد يقول بتعدد الزوجات · فآلهة كثيرون وزوجة واحدة صيغة تليق عادة بالغربي واله واحد وزوجات متعددات صيغة تجمل بالشرقيين .

ثم انه ليصعب جداً على الغربيين ان يقدروا شريعة القرآن في تعدد الزواج حق قدرها لما بينهم و بين الشرقيين من الاختلاف الكلي في الجنس والدين والتمدن ولذلك فمن الامور التي تهم معرفتها ما اهمله

الباحثون دائماً وهو ان تعدد الزوجات عادة قديمة في العرب قبل الاسلام فكثرة النساء اقدم من وجود الجوامع ومن الخطإِ المطلق قول الاب (بروغلي) ان كثرة النساء وجدت مع الاسلام اذ من المحقق ان قبائل العرب الذين اسلموا في مبدأ الامر كانت على هذا المذهب كما عليهِ الآن الامم السوداءَ التي تميل بكلياتها في هذهِ الايام الى الاسلام وكان هذا المذهب في تلك القبائل والسود اوسع مما جاءَ بهِ القرآن فهو لا يبيح اكثر من اربع بالكتاب ولذلك يقول اولئك القوم عن النبي انهُ مصلح شديد المعاملة ولا شك في ان ميلهُ اولاً كان الى الاقتصار على زوجة واحدة كما جرى على ذلك في اول حياتهِ ولكن كان من الصعب ان يلزم بني قريش بذلك وقد كان من بينهم مثل الحارث وغيلان لكلٍّ عشر نساء اعتنقنَ الاسلام مع زوجهنَّ فلو امرهم بالاقتصار على زوجة واحدة لشق الامر جدًّا عليهم وصعب احتمالهُ وربما أدى ذلك الى تزعزع عقيدتهم في الدين الجديد لهذا أمرهم (صلى الله عليهِ وسلم) ان اختاروا من بين ازواجكم اربعا تفضلونهنَّ على البقية وطلقوا ما عداهنَّ ولا يعجبن القارئ ان لم اذكر شيئًا عن تعدد زوجات النبي فقد ذكرت طرفًا منهُ في آخر الفصل الاوَّل وسأعود اليهِ فيما بعد . ويؤْخذ ميل الدين الاسلامي الى تفضيل زوجة واحدة من الآية الثالثة من السورة الرابعة التي تحدد عدد ما يباح من الزوجات (وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب

لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى ان لا تعولوا) ومعنى القسم الثاني من هذه الآية على ما رواهُ العلماء هو ان الرجل اذا خاف ان لا يكون عدلاً بين زوجاته وخشي تفضيل احداهنَّ عليهنَّ ولم يكن في حالة تسمح لهُ ان يوفي كلاً حقها وجب عليه ان لا يتزوج باكثر من واحدة وذهب بعض العلماء الى ان المسلم ليس حرًّا في الحكم على مقدرته وجواز تعدد زوجاته بل القاضي هو الذي ينظر في ذلك ويقضي بما يظهر لهُ فان رأى عدم العدل في الطالب حكم بالاقتصار على زوجة واحدة وأيدوا قولهم بالقصة الآتية (كان الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور يحب زوجتهُ حبًا مفرطًا ولذلك لم تمل نفسهُ الى التزوج بغيرها معها ولكنهُ بعد سنين قضاها في السعادة والهناء جنح الى طلاوة الجديد واراد ان يتخذ زوجة ثانية ورأت زوجتهُ انهُ سيكون لها ضرَّة وربما ساءت معاملتها فانكرت عليه ما ظهرت اباحتهُ في القرآن وقالت بانهُ لا يجوز لهُ ان يتزوَّج باكثر من واحدة فاستدعى الخليفة ابا حنيفة وكان من الائمة الاعلام (لعل المؤلف يريد غير الامام المجتهد ابا حنيفة) وسألهُ كم من النساء الحق للرجل في الزواج فاجاب من فوره اربع فالتفت الخليفة الى زوجته وكانت تسمع من وراء حجاب وقال لها بصوت رفيع ها قد سمعت ما قال الامام فلما سمع ابو حنيفة ذلك منهُ استدرك وقال الا انهُ لا يجوز لابي جعفر ان يتزوَّج باكثر

من واحدة فقال ولماذا قال الامام لانك لما التفتّ الى زوجتك وكلمتها رأيت من صوتك ما علمت منهُ انك لن تعدل معها ولهذا احكم الآن بان نقتصر على معاشرتها) . ولم اقف بعد ذلك ان كان الخليفة اطاع حكم الامام وحالة ابي جعفر هي حالة كل مسلم يميل الى الاكثار من الزوجات اذ الواقع عدم المقدرة على العدل بينهنّ ولذلك فمن النادر ان تعرض هذهِ المسئلة على قضاة المسلمين ولكن ليس الحال كذلك بالنظر الى ميسرة الزوج وقدرتهِ ان ينفق على اكثر من زوجة واحدة فمن اسباب عدم الاكثار من الزوجات خوف الرجل من العجز عن القيام بالنفقة بدون توسط القاضي فتعدد الزوجات في الشرق معدود من التكاثر وهو عزيز النوال للفقرآء ولا يتمتع بهِ الاّ الاغنياء حتى كأن تعدد الزوجات في الشرق عند الاغنياء امر توجبهُ عليهم حيثياتهم بين الامة كما كان ذلك حاصلاً عند قدماء الجرمانيين (راجع الملحق الخامس) ولما كان التفاوت في الدرجات امرًا مقبولاً عند المسلمين مع كمال الترضي وحسن الاعتقاد ترى الفقراء منهم يقفون عند نواهي القرآن في تعدد الزوجات كما يحترمونها في غيرها ولا يحسدون الاغنياء على زوجاتهم كما انهم لا يحسدونهم على بقية ما اختصهم الله بهِ من المميزات وهم من جهة ثانية يعلمون جيدًا ما يلحق بذي الزوجات من المتاعب والاوصاب وان نعيم العيش الوسط لذي امرأة واحدة ومع ذلك قد اخطأ موسيو (كاروز) حيث ذهب الى ان تعدد الزوجات

يغتفر للاغنياء ويحرم على غيرهم بل الذي يفهمهُ المسلمون في القرآن عن الزواج هو ما كان يقولهُ القديس (بولس) (ما كل مباح ينبغي) والمسلمون لا يقدمون كثيرًا على استعمال ما اباحهُ شرعهم الديني من تعدد الزوجات خلافًا لما يتوهمهُ غيرهم لانهم يخشون ضيق العيش وفقدان الصحة فكثيرًا ما تشكو النساء ازواجهنَّ على هجرهنَّ ثم المنازعات في كل يوم مما يجعل البيت جحيماً . وللكتاب من العرب في هذا المعنى كلام يدل على عدم الميل لتعدد الزوجات كما نقلناهُ عن بعضهم في غير هذا الكتاب حيث قال (ايها الراكب على فرسين احذر من السقوط وكفاك من حب زوجتين وكفاك واحدة ان رمت السلامة) وقد يلاحظ ان القانون الذي لا يسوى بين الغني والفقير في الزواج يخالف عاداتنا في هذهِ الايام ولكن من عرف طبائع المسلمين علم ان ذلك القانون لا يحدث بينهم ما يظهر لنا من نتائجهِ لو كان عندنا ففقراء المسلمين مترضون عن حالتهم قانعون بما قسم الله لهم من العيش جريًا على حكم الضرورة عن طيب نفس خلافًا لما يتوهمهُ موسيو (دو بروجلي) وانما القرآن يوصي المعدم بالانتظار فلا يتزوَّج غير قادر عليه (انظر الملحق السادس) ومع ذلك فالمعدم عن الزواج نادر والعامة يتزوَّجون في الثامنة عشرة غالبًا واهل الشرق لا يعرفون العزوبية وهي المصيبة التي جلبها التمدن على الغربيين وكان محمد (صلى الله عليهِ وسلم) في محادثتهِ مع صحابتهِ يجب ان يسمعهم

كثيرًا قوله (لا رهبانية في الاسلام) ثم قال لهم يومًا (نفسُ المتزوج احب الى الله من صلاة ستين اعزب)

ويرى القارئ مما تقدم ان الناس بالغوا كثيرًا في مضار تعدد الزوجات عند المسلمين ان لم نقل ان ما نسبوه اليهِ من ذلك غير صحيح فما تعدد الزوجات هو الذي ولد في الشرق تلك الرذائل الفاضحة التي يشير اليها الاب (بروجلي) بل المعقول انهُ من شأنهِ تلطيفها على انني لست ادري ان كانت تلك الرذائل في الشرق اكثر منها في الغرب بل تلك وصمة الصقت بالاسلام بواسطة السواح الذين يرون امرًا في فرد فيجعلونهُ عامًا من غير تثبت فيهِ ولولا هذا التعميم السطحي لما وجدوا شيئًا يملأون بهِ مؤلفاتهم والواقع ان الرذائل الفاضحة موجودة في كل امة ولقد يقع منها في باريس ولوندره و برلين اكثر مما يحدث في الشرق باجمعهِ لان النبي صلى الله عليهِ وسلم بالغ في تحريمها ولم يعدها من الذنوب الخفيفة كما فهم بعضهم من آية (واللذان يأتيانها منكم فاذوهما فان تابا واصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توابًا رحيمًا) لان ذلك خروج بالآية عن معناها وشطط في تفسيرها وليست هذهِ الآية هي الوحيدة التي جاءت في القرآن بل كثير غيرها كما في سورة الاعراف قال تعالى (ولوطًا اذ قال لقومهِ اتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين . انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون وما كان جواب قومهِ الا ان قالوا اخرجوهم من

قريتكم انهم اناس يتطهرون) . هذا والشرع الاسلامي سواء كان اخذاً عن القرآن او السنة من اشد الشرائع صرامة في معاقبة هذا الفعل ففيه يقتل البالغان ان اتيا هذا الفعل معاً فان فسق بالغ بصبي يقتل الاول ويؤدب الثاني فان فعله صغيران جلد كل منهما مائة جلدة واما ما يتعوده المراهقون من الامر القبيح وكذلك فساد الاخلاق فمما لا وجود له في الشرق الا بطريق الاستثناء لسهولة الزواج

ومن الخطإ الفاضح والغلو الفادح قولهم ان عقد الزواج عند المسلمين عبارة عن عقد تباع فيه المرأة فتصير شيئاً مملوكاً لزوجها لان ذلك العقد يخول للمرأة حقوقاً ادبية وحقوقاً مادية من شأنها اعلاء منزلتها في الهيئة الاجتماعية فلها ان تشترط على زوجها عدم التزوج بغيرها وعدم التسري وان لا يغيب اياماً كثيرة عن بيته بدون اذنها وان لا يؤذيها ولا يسبها وان لا يكلفها باعمال البيت الشاقة وهكذا فان لم يفِ بهذه الشروط جاز للمرأة ان تطلب الطلاق فان لم ترده لنفسها جاز لها ان تطلب منه على يد القاضي ان يطلق ضرتها او ان يعتق الجارية كي يبطل حق التسري بها (١)

ولم يقتصر القرآن في التضييق على تعدد الزوجات على عددهن بل حرم ما كان معروفاً عند العرب قبله من الزواج لزمن محدود وفي ذلك شبه تحريم للطلاق لكونه لا يتأتى الا بشروط مخصوصة

(١) في هذا نظر

ومع هذا كله فان تعدد الزوجات اوجب عدم اعظام الديانة الاسلامية حتى ان المتنورين من المسلمين انفسهم شاعرون بهذا ولو كان لهم شيخ ومؤتمر ديني (اريد سلطة قائمة على الدين لتوفق بين نصوصه وحاجات الزمان) لاصبحنا في شك من بقاء اباحة تعدد الزوجات قال موسيو (ريفيل) على اننا لو رجعنا الى زمن النبي (صلعم) ومكان ظهوره لما وجدنا عملاً يفيد النساء اكثر مما اتاهُ عليهِ السلام فهنَّ مدينات لنبيهنَّ بأُمور كثيرة وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهنَّ وما يجب لهنَّ على الرجال فمنها ما يختص بتحريم ما لا يجوز من اللذائذ معهنَّ ومنها ما يوصي بالحشمة والوقار في استعمال ما اباحهُ الله جاء (اليوم أُحل لكم الطيبات وطعام الذين أُوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهنَّ أُجورهنَّ محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان) (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبيرٌ بما يصنعون) (قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغوِ معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون) وقد اخذ الصحابة عن النبي كثيراً من الاوامر المشددة التي تحرم الاسترسال مع الشهوات وعدم التمسك بقواعد العصمة والكمال فلا يجوز للخاطب ان يرى من مخطوبته غير وجهها ويديها ومن الجناح على المسلم ان يرفع بصره الى امرأة لا يريد ان

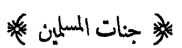
يتزوّجها جاء في الانجيل (من نظر الى امرأة نظر شهوة فقد زنى بقلبه) ويقول المسلمون (لزناء العين اشد حرمة من زناء الصدور) هذه اوامر عاصمة تسوي بين الجريمة وبين مجرّد الشهوة وتحرم النظر الى زوجة الغير وليس من يعيها الا المسلمون لان نساءهم محتجبات عن العيون ويرى القارئ من جميع تلك الآيات مقدار اهتمام النبي بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين لكي يجعل الازواج والاباء في راحة ونعيم وربما كان الانجيل اكثر تدقيقاً واً كد في التشديد ولكنهُ لا يعمل بهِ الاّ قوم خصهم الله بمواهب الكمال وهم قليلون اما البقية من الامة فليس لهم اخلاق اطهر من اخلاق الأمم المتدينة بغير النصرانية لكن شريعة القرآن جاءت ملطفة وجمهور المسلمين يلاحظها ويجرى على مقتضاها وقد مارسوا النظافة والاعتناء بالصحة عملاً بما جاء في القرآن او في الحديث فكانت لهم من ذلك اخلاق مخصوصة بهم وتولدت في نفوسهم ملكات الحشمة والوقار وجاء هذا مغايراً لآداب الأمم المتمدنة اليوم على خط مستقيم ومزيلاً لما عساه كان يحدث عن ميل الشرقيين الى الشهوات لولا هذه التعاليم والفروض والفرق بين الحشمة عند المسلم وبينها عند المسيحي كما بين السماء والارض فالمسلم يجرح نظره ويستحي من مرأى الاعلانات التي ينشرها الغربيون ومن راقصاتهم في لباسٍ كأنهنَّ بهِ عراة ومن حفلات الرقص حيث النساء خالعات العذار كاشفات المناكب ومن جميع ملاهينا التي

لا تمتاز عن بعضها الا برقة ما يستروجه الحياء . رأيت ذات يوم في
سراي الوزير مصطفى بالجزائر قوماً من الشيوخ رؤساء القبائل اجابوا
الدعوة ليزدان المكان بوجودهم وهم من اقاصي الصحراء حيث صفاء
الاخلاق وطهارة العادات عليهم البرانس وعلائم العزة والوقار تعلو
جباههم ينظرون الى المسيحيات رائحات غاديات وهنَّ عراة الصدور
تحت ذراع من يتقدم لهنَّ من الرجال وقلوبهم ملء من الاحتقار ومن
كان من بين اولئك الشيوخ غير متمسك تماماً بجميع العوائد القومية
كانوا يتخيلون بانهم لا يشاهدون حالة اعتادها الافرنج لترويح النفس
بل ينظرون الى مجتمع انطلقت فيهِ الشهوات ورفع فيه برقع الحياء عن
الوجوه فاستباح كل واحد ما اراد كما يقع ذلك مرّة في كل سنة عند
الزنوج او بعض قبائل الهمج حيث يأتي الاسافل من الامة مثل تلك
الفعال ولكنهم عند وقوع نظرهم بين الجمع على رؤساء المصالح الذين هم
اصحاب الامرة عليهم كانوا يرجعون من وهمهم ويعلمون ان ما يشاهدون
من المناظر حقيقة اعتاد اولئك القوم عليها . هنالك يجول بخواطرهم
تعاليم شرعهم ويعظم شأن القرآن في قلوبهم عند ما تقترن آدابه
بالمشهد المخجل الذي هم فيهِ (وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهنَّ
ويحفظن فروجهنَّ ولا يبدين زينتهنَّ الاَّ ما ظهر منها وليضربن
بخمرهنَّ على جيوبهنَّ ولا يبدين زينتهنَّ الاَّ لبعولتهنَّ او آبائهنَّ او اباء
بعولتهنَّ او ابنائهنَّ او ابناء بعولتهنَّ او اخوانهنَّ او بني اخوانهنَّ او بني

اخواتهنَّ او نسائهنَّ او ماملكت ايمانهنَّ او التابعين غير أُولي الاربة من الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهنَّ ليعلم ما يخفين من زينتهنَّ وتوبوا الى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون (يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنَّ من جلابيبهنَّ ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) وقلما تستبيح امرأة غير شابة ان تكون بلباس اقل من ذلك حشمة وكمالاً (والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهنَّ جناح ان يضعن ثيابهنَّ غير متبرّجات بزينة وان يستعففن خيرٌ لهنَّ والله سميع عليم) ولقد اطلنا الشرح فخرجنا عن الموضوع وشرحنا اخلاق المسلمين ذلك لاننا نعتقد ان ما قدمناه برهان قاطع على ان تعدد الزوجات لم يتخذ ولم يكن ليتخذ مشجعاً على انتشار ديانة الاسلام٠

وبقي علينا ان ننظر ان كان النبي اتخذ لذائذ الجنات التي وعد بها الشهوات سلماً لاستمالة بني آدم وحملهم على اعتناق ديانته

الفصل الرابع



الحياة الاخرة – السعادة الاخروية في مذهب المسيحيين – الرمز والتفسير – السعادة الاخروية في مذهب المسلمين

ليس للحياة الآخرة من المكانة في بعض الديانات القائلة بخلود الارواح ما لها في البعض الآخر فالديانة المسيحية تشير الى انها هي المقصد الاسمى من الحياة الدنيا ولذلك يجب ان يعتقد المرء بان لذائذ هذه الدار وزخارفها خيال باطل وان يتجرّد عن نفسه كي تطهر روحه فيتقدم رويدًا رويدًا في الحياة العقلية لينال بها السعادة العظمى ومع تكرار هذه الحقائق ونشرها بواسطة القائمين بامر هذا الدين لا يزال اغلب المسيحيين يراها تصوُّرات ذهنية كمالية بها تجتهد الكنيسة ان ترفع ما انحط من طبائعهم ومن هنا يشاهد المتأمل فرقًا عظيماً بين التعاليم والاعمال كما تتناقض الاقوال والافعال كثيرًا عند المسيحيين ويرى الكثير منهم في ضميره وان لم يجاهر بهِ ان في ديانتهم قسماً من التخيلات لا تسمو اليهِ مداركهم ولا يصبو اليهِ الاَّ من اختصهُ الله بالمواهب الصمدانية ويحسبون انهم ادوا واجباتهم باصغائهم الى تلك الحكم البالغة واعتقادهم انها من ديانتهم وانهم يرجعون اليها عند

الحاجة لبيان مقامها الرفيع ومكانتها العلياء كذا هم يعملون في قاعدة (انما الحياة الدنيا طريق الاخرة) على ان سعادة الاصفياء سر من الاسرار التي تخفى على المسيحيين وهو غريب لان سعادة الاخرة هي المرجع الذي كان يجب ان ترمى اليهِ اعمالنا كلها ولكن مع الاسف نرى العقول لا تكاد تدرك من هذا المقصد الاسمى شيئاً ومما يزيد الامر تعقيداً واشكالاً مذهب بعثة الاجسام على الكيفية التي يذهبون اليها فانهم يقولون ان الاجسام تتحوّل يوم الحشر من اجسام مادية الى اجسام روحية · قال القديس بولس خلق الجسد من مادة تزول وسيبعث على كيفية لا تقبل الانحلال لانه خلق جسداً حيوانياً وسيبعث جسداً روحياً وماذا يا ترى تكون حقيقة تلك الاجساد الروحية التي لا تزال اجساماً فلها حواس وهي ارواح فتتمكن من مشاهدة ربها · افهل السعادة التي يعدنا بها القسس والرهبان هي تصوُّر تلك السعادة ام هي سعادة حقيقية تقوم بغير التصوُّر والتخيلات تلك مسائل ليس في الانجيل ولا التوراة نص صريح يفسرها وان اجتهد الكنائسيون في ايضاح طرف منها واهمهم في البحث هو القديس (اوغستان) فانه كان شديد الولع بمعرفة تلك السعادة وغاية ما وصل اليهِ انهُ لم يبلغ حد اليأس في تفسير هذا السرّ المكنون بمعونة الله وقدرته وجميع كتبه دالة على شدة اشتغاله بتلك الحياة الادبية السعيدة التي يتصوَّرها الاولياء فيشاهدون ربهم بتخيلها قبل البعث وبعده · وعلى كل حال فلا تزال تلك السعادة

سرًّا مختوماً لا يعرفه الناس ولا يدركه الا الاولياء

ومن هنا وقعت الديانة المسيحية بين مذهبين متناقضين فمن قائل بان السعادة الأُخروية انما هي حالة نفسية مرجعها طهارة القلب والمشابهة بين المخلوق والخالق ومنهم من يقول بل هي غير ذلك امر مادي محسوس والف (سيرانتي) كتاباً كله بدع غامض المعنى مبهم المراد جاء فيه ان السعادة الأُخروية عبارة عن اعراس تتعاقب اثر بعضها وقال المجذوب (شريدنبورج) رئيس مذهب كنيسة اورشليم الجديد في القرن الماضي ان لجميع اللذائذ الدنيوية نظائر في الآخرة ويظن بذلك انه توصل الى حل الاشكال واعرب عن مصير الناس ولكن جاء كتابه بعبارة مستهجنة سخيفة فلم ينل من قرائه التفاتاً حتى بصفته اعجوبة او خرافاً

واما الاسلام فلم ينظر الى الآخرة نظر الدين المسيحي ونرى المسلمين ينتظرون ما وعدهم به النبي من النعم والسعادة وقلوبهم مطمئنة ولم يضحوا الدنيا للآخرة اما نعيم الآخرة فالمتكلمون من اهل السنة يقولون بانه حالة تقوم بالنفس فتجعلها من السعداء واما مشاهدة الذات العلية فان النبي ضرب لها امثالاً حسنة قريبة المنال من مدارك الشرقيين ولولا ذلك لما عقلوها لبعد طبائعهم عن ادراك الامور المعنوية المحضة اذ الغربيون انفسهم لم يدركوا ذلك الامر المعنوي على ان رسولهم قد كلفهم امرًا جللاً اذ حرَّم عليهم ان يفكروا في تشبيه

الخالق بالمخلوق وحرَّم عليهم تصوير المخلوقات الحية ولولا ذلك للزمه
ان يطلب من عقولهم ما لا قبل لهم به فيكلفهم بادراك اللذائذ الذهنية
المحضة او انه يرجع بهم الى مذهب تجسم الاله وما يتبعه من الاوهام
فيتصوَّر لهم ربهم بصورة انسان جالس من حوله الاولياء والاصفياء
ولكن صناعة الرمز والاشارة سهلت لهُ الاستعلاء على هذه المشكلات
(ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها فاما الذين
آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ماذا
اراد الله بهذا مثلاً يضل بهِ كثيرًا ويهدي بهِ كثيرًا وما يضل بهِ
الاَّ الفاسقين) ولو رجعنا الى القرآن لنتلو الآيات التي نزلت في بيان
سعادة الاخيار في تلك الدار لوجدناها في اوَّل الامر تصف جنات
عاليات قطوفها دانية كانها الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء التي توجد
في هذه الحياة الدنيا وعلمنا بان تلك الاوصاف كانت من اكبر
المؤثرات في نفوس العرب المنزلة عليهم · وفي الواقع انه ليلذ الى البدوي
الذي تعود ارضاً قحلاء وماءً آسنا ربما لا يجده ايضاً طول يومه ان
يتصوَّر بان سعادته النهائية هي الراحة في جنة خضراء ودوحة فيحاء
تسقى بماء كوثري وفيها من كل فاكهة لذَّة للاكلين ولن يذوق لمثل
هذا الوصف معنى الاَّ من عاش في البادية وكابد الحياة في الصحراء
وهذا هو السبب في ان النبي (صلعم) كان يأتي بمثل ذلك حيناً بعد
حين وهو تكرار ربما تعبت منهُ عقول الغربيين لعدم تعودها عليهِ

ولكنه كان يفعل كثيراً في نفوس سامعيه من امة العرب اذ هو في الواقع اسلوب في الخطاب له منزلة رفيعة عندهم ولا يزال يثير عواطفهم ويحرّك نفوسهم على بساطتها وسهولة موردها كما شاهدت ذلك بنفسي ولقد الذ اذ أتخيل النبي واقفاً تحت شمس البادية حيث لا ظل يقي من حرّها و يخطب في القوم موصفاً ظلال الجنة الوارفة التي وعد الله بها المتقين واشاهد الجمع هائماً من حوله مأخوذاً بحلاوة الخطاب الذي يلقيه بصوت يزداد وقعاً في القلوب (ولمن خاف مقام ربه جنتان فباي آلاء ربكما تكذبان ذواتا افنان فباي آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان فباي آلاء ربكما تكذبان فيهما من كل فاكهة زوجان فباي آلاء ربكما تكذبان متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان فباي آلاء ربكما تكذبان) وكان كلما قال آية زاد وجد السامعين بما تزيده في وصف الجنة من الطلاوة والتمكين . ولقد جرى الشرقيون على عدم التفريق بين جنة الاخيار وجنة الدنيا لذلك اعجبهم ذلك الوصف فاخذ بمجامع لبهم لمطابقته اذواقهم واشتغل بها عقلهم وان لم يرد النبي بها وصف السعادة الباقية في الواقع ونفس الامر وعلى هذا النمط جاء وصف اللذائذ السماوية وهو ايضاً مأخوذ مما كانت العرب تميل اليه في هذه الدار (وعندهم قاصرات الطرف عين كانهنّ بيض مكنون (وزوّجناهم بحور عين (فيهنّ خيرات حسان فبأي آلاء ربكما تكذبان حورٌ مقصورات في الخيام فبأي آلاء ربكما

تكذبان لم يطمثهنّ انسٌ قبلهم ولا جانٌّ فبأي آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرفٍ خضرٍ وعبقري حسان فبأي آلاء ربكما تكذبان) (فاصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشئمة ما اصحاب المشئمة والسابقون السابقون أُولئك المقرَّبون في جنات النعيم ثلة من الاوَّلين وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدانٌ مخلدون باكواب واباريق وكأْس من معين لا يصدَّعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحورٌ عين كامثال اللؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعملون (انا انشأْناهنَّ انشاءً فجعلناهنَّ ابكارًا عربًا اترابًا لاصحاب اليمين) (ان للمتقين مفازًا حدائق واعنابًا وكواعب اترابًا) تلك اشارات واستعارات ليس الامر المادي فيها الا رمزًا للعشق الروحاني وهو ضرب من ضروب الكتابة والقول معهود عند الامم الشرقية وفي الزبور شيء كثير من ذلك وكأَن الكتب المقدسة استعارت الحب الانساني وقوَّة تأْثيره في النفوس لتشبه بهِ للناس نعيم الاخرة وهو امر طبيعي لان اجتماع النوعين الذكر والانثى يشخص في نفوسنا نحن الغربيين صورة السعادة الابدية فالذوق الغربي لا ينفر من هذه التشابيه والاستعارات على شرط ان لا يتوسع فيها الى التصريح المطلق ولكن ذوق الشرقي لا يطلب هذه القيود وينبغي لهُ ان يكون التشبيه تامًا فلا يغفل احد لوازمه ولا يبهم طرف من متماته وهذه وسيلة يتوصل بها الى تمكين العقول المادية من تصوّر

الاديات المحضة وكان هذا الاسلوب مقبولاً جداً في القرون الوسطى فقد احتوت قصة الورد لمؤلفها (غليوم لوريس) على اربعة آلاف بيت كلها صور واستعارات وتشابيه وقد ذهب بعض الباحثين الانقياء الى ان تلك الوردة التي ولع المؤلف بحبها هي الذات الالهية لا ذات المرأة المحبوبة · ومع كون الكتاب صريح في الاشارة الى الماديات فقد عدوه سفرًا دينيًا وليس هنا موضع البحث في صحة هذا التفسير لقصة الوردة وانما غايتنا ان نستخلص مما تقدم عدم المانع في اعتبار مؤلفات الشرقيين قابلة لتفسير ادبي وان دلّ ظاهرها على ان المقصود منها امور مادية فالعبرانيون والعرب من بعدهم استتروا بستار اللذائذ المادية والنعيم البدني وهم انما قصدوا الاديبات والسعادة الروحانية وفي عملهم هذا تعاكس في الالفاظ واشاراتٌ للمراد او مفارقاتٌ وموافقات تلذّ لها عقولهم ولهذا لا يسعني ان ارى في نشيد بعضهم (لعلها تقبلني بفمها) اشارة الى واقعةٍ مع امرأة كذلك الفاظ العشق وعبارات الوجد والهيام المنثورة في المزامير لا تنقص من قيمة هذا الكتاب المقدس وكونه كتاباً رمزياً نعم ان تقرُّب بعض العباد المخلصين من الله كان امرًا بعيدًا عن عقول العبرانيين الاولين والعرب الاولين والشرقيين على العموم ولكن ليس المراد هنا معرفة الوصلة والزلفى لدى الله لان ذلك يستلزم معرفة حقيقة تلك الاناشيد وهذه التشابيه وانما الغرض بيان انها رمز لا حقيقة وقد اعترف مؤرخ اللغات

الشرقية وهو موسيو (رونان) بصحة قولنا وبأن عقول العرب والعبرانيين مطبوعة على استعمال التشابيه والاستعارات والاكثار من المجازيات في الالفاظ

ومتى سلمنا بان المقصود من المزامير شيء آخر غير ما يعطيه ظاهر لفظها فلا يجوز حينئذٍ تفسيرها تفسيراً لفظياً لزمنا ان ننحو هذا النحو بعينه في فهم الآيات القرآنية التي جاءتنا بوصف الجنان نعم يصعب علينا ان نرى خلف هذه الصور المادية الصرفة مرامي ادبية الاَّ ان هذه الصعوبة آتية من مخالفة هذا الاستعمال لما تعودناه في اقوالنا وكتبنا ومن السهل جداً ان يرى الواحد خلفاً بينه وبين آخر من غير امته في طرق التفاهم والحديث فالذي يجب ان يشار اليه بلطف ورقة عندنا يبرزه الشرقي في صورة حقيقية فلا يدعون لعقولنا محلاً لابصاره من خلال الفاظهم

ولقد يتعذر علينا ان نعرف اي المعنين ينطبع في قلب المؤمن عند تلاوة القرآن معناه اللفظي او معناه الحقيقي ويحتمل ان ذوي العقول الضعيفة منهم لا يفقهون غير ما يدل عليه اللفظ بظاهره واما الآخرون فيرون فيه معنى يميل بهم الى مرامي سامية يذوقون فيها حلاوة الزلفى بين العبد وخالقه والكثير منهم يسمعون القرآن فلا يعتقدون بظواهر كلماته ويشعرون بانه يرمي الى سعادة مخصوصة يتصورونها على كيفية غير واضحة لهم تماماً على ان في القرآن نفسه

آياتٍ كثيرة جاءت في السعادة الاخروية خالية من التشبيه والاستعارات . فلا يقول بان المسلمين لا يعرفون سعادة ولا نعيماً مما وعدهم به القرآن غير ما كان مادياً شهوياً الاَّ من غفل عن تلك الآيات ومال الى تغيير اصل الكتاب وقلب الحقائق التي ثبتت فيه (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم)

وقد قال المفسرون في رضوان الله ان الله يتجلى على عباده المصطفين فتكمل سعادتهم و يتم بذلك نعيمهم وجاء (دعواهم فيها سبحانك اللهمَّ وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين) (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية و يدرأون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار) (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عندهُ حسن المآب)

على ان الكتاب نفسه لم يترك مجالاً لمعترض فنهى عن تفسير آياتهِ تفسيرًا لفظيًّا او تجسيم التشبيه بما لا يحتملهُ المقام فقال في سورة آل عمران (هو الذي انزل عليك الكتاب منهُ آيات محكمات هنَّ أُم الكتاب وآخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون

ما تشابه منهُ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الاّ الله والراسخون في العلم يقولون آمنا بهِ كل من عند ربنا وما يذكر الاّ أُولو الالباب (وان منهم لفريقاً يلوون أَلسنتهم بالكتاب لتحسبوهُ من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)

وقد اتفق المتكلمون من المسلمين الذين اشتغلوا بتفسير القرآن خصوصاً اهل السنَّة الذين يرجعون في تفسيرهم الى الاحاديث النبوية والاقوال المأْثورة عن السلف ويلاحظون اسباب النزول على ان السعادة الاخروية انما هي امر ذهني يقوم بالنفس فتصير منعمة مطمئنة وهذا النعيم هو اكبر النعم فلا نعيم بعده قال الشيخ العالم (رب ان الجنة لا ترجى الاّ لرؤْياك فيها ولولا نور ذاتك البهية لعفناها) واني اختم هذا الفصل بدعاءٍ مأْثور عن الشيخ القشيري ولعلهُ لا يذري ببعض كتب الدعاء المسيحية (إِلهي انك تهددني بفراق يحرمني على الدوام من تجلياتك البهية فيارب اصنع بي ما تشاء ولا تحرمني من مشاهدتك العلية فليس سمٌّ امرُّ مذاقاً واشد قتلاً من أَلم هذا الافتراق وما حيلة النفس بغير ربها الاّ ان تعيش في فزع وتبقى في حيرة واضطراب رب ان النفس لترضى بان تذوق الموت مائة الف مرَّة ولا تذوق حرقة فرقتك مرَّة واحدة رب ان مصائب الدهر وجميع الامراض القتالة لو اجتمعت عليَّ لاحتملتها غير متوجع من وقعها ولكن لا طاقة لي على

احتمال بعدك عني رب لو احتجبت عنا برهة اقحلت ارضنا وغاضت انهارنا فماذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب لولاه لما احرقت نار الجحيم واشتد لهيبها رب ان في تجليك حياتنا وكمال سعدنا ونعيمنا وفي احتجابك عذابنا وجحيمنا)

الفصل الخامس

﴿ القضاء والقدر ﴾

متشابهات القرآن ومذهب الناسخ والمنسوخ – الاختيار والقضاء والقدر في القرآن والحديث – مذهب (توماس) ومذهب (مولينا) – الجبرية والقدرية

يثبت الناس كل مبحث بالقرآن اذ من السهل جدًّا ان يجد فيهِ الباحثون سندًا لدعاويهم المتناقضة والقرآن في هذا لا يختلف عن غيرهِ من الكتب المقدسة التي تستوقف المطالع بظواهر متشابهاتها والقرآن على مذهب اهل السنة قديم مرقوم من الازل في اللوح المحفوظ ونزل بهِ الملك جبريل (عليه السلام) في الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان وهي ليلة القدر من السماء السابعة الى السماء الرابعة

ثم نزل على النبي في الارض مفرقًا في مدى الثلاثة وعشرين سنة وهي مدة الرسالة ونرى انهُ لا يجب الاخذ بهذهِ الرواية الاَّ في امرٍ

واحد هو ان الست آلاف آية التي يتألف القرآن منها نزلت تباعاً بعضها اثر بعض على غير تساوٍ في العدد كل مرة وفي ظروف مختلفة عن بعضها كثيرًا بحيث تلزم معرفتها حتى يتمكن الباحث من النظر في المتشابهات منها . وبينما الانجيل يقص على الناس جميع ادوار حياة رسولهِ وتعاليمهِ بعبارة وافية سهلت على المسيحيين من مبدإِ امرهم ان يتناقلوها خلفاً عن سلفٍ ترى القرآن لا يأْتي على شيءٍ من ذلك غير انه كلام الله لنبيه وان سورة كذا مكية وسورة كذا مدنية وهو تقسيم اختياري ادخل عند جمع الكتاب وليس فيه شرح او حديث يساعد على معرفة الوقائع والظروف التي استنزلت سوره وآياته وهذا هو احد الاسباب التي تحمل على القول بان في القرآن اختلافاً وهناك سبب آخر مقبول ذلك ان الوحي كان ينزل على النبي بحسب حالة الافكار وتحولها الديني بسبب رسالته فكانت الآيات تنزل كما تقتضيه تلك الحال وكان من اللازم طبعاً حصول التعديل في اللاحق منها حتى يلائم المقام فالحكم الذي يوحى به لرد شبهة ظهرت تخالف ذلك الدين الجديد لا يمكن ان يبقى كما نزل بعد تبدل الاحوال وزوال السبب من الافكار وليس من ينكر على الطبيب تنويع الادواء بحسب ادوار المرض وتقلباته وعلماء الاسلام يردون طعن المنددين في هذا الموضوع بمذهب الناسخ والمنسوخ فيقولون ان الله انزل احكاماً في القرآن ثم نسخها بغيرها لاسباب حكمية عالية

وتنقسم متشابهات القرآن الى قسمين فمنها ما هو ظاهري فقط يسهل التوفيق بين قضاياه ومنها ما خفي سببه او تعسر فهمه خصوصاً فيما يتعلق بالقدر المحتوم ولذلك تشحذت افهام العلماء في الكلام عليهِ وما جاء في القرآن متعلقاً بهذا الموضوع قليل في جانب ما ورد في الاحاديث الشريفة وهي مجلدات كبيرة جاءت بجانب القرآن كالقوانين الكنائسية وحكمها يكاد ان يكون كحكم تلك القوانين ولكنها ليست عند المسلمين في درجة القرآن اعتبارًا وقد اعتنى الجامعون كثيراً في جمعها ولكنهُ حصل بعد النبي بمائتي سنة تقريباً ولذلك لا يمكن للباحث ان يثق بصحتها وثوقه بصحة القرآن نفسه فلا يبعد ان بعض المتكلمين اضافوا رأيهم الى النبي وان كثيرًا من الاحاديث المنسوبة اليهِ موضوعة لم تصدر عنهُ

ومن ذلك سهل على بعضهم ان يستنتج من بعض آيات القرآن ومن كثير من الاحاديث على الخصوص بأن الاستسلام للقضاء والقدر اسٌّ من اساسات الدين الاسلامي وركن من اركان الاعتقاد بانهُ لا اختيار للمرء في افعاله ولكنني ارى من السهل ايضاً ان يجد الباحث في القرآن والحديث سندًا في القول بان الدين المحمدي لا ينافي الاختيار في الانسان على انهُ من المسائل التي جاءت في الكتب المقدسة ما لا تزال تحت نظر المتكلمين وهم الى اليوم لم يهتدوا الى حلها ومسئلة التوفيق بين قدرة الخالق وارادته في كل شيء وبين

الاختيار في الانسان مسألة يشترك فيها المسلمون والنصارى والخلاف فيها عند كل فريق لا يزال قائمًا حتى الآن

وصف النبي ربه بانهُ العالم بكل شيء ثم وصفه بانهُ علاَّم الغيوب وهذا الوصف الاخير جزوءٌ من الاوَّل وقرَّر قدرة الذات الالهية واستخلص من ذلك تبعية المخلوق وقال ان الله هو السبب الاعظم الاولى في كل شيء فارجع اليهِ جميع اعمالنا لذلك جاء في غير موضع من القرآن (وهو القاهر فوق عباده (عالم الغيب والشهادة (قل كلٌّ من عند الله) وكلها حقائق دارت عليها ابحاث المختلفين والنقيض على ما يقولون وهو الاختيار في الانسان مؤيد ايضاً في مواضع كثيرة من الكتاب فقد عدَّ المشتغلون بالتفسير واحدًا وخمسين آية كلها في اثبات ذلك الاختيار يضاف اليها ثلاث عشرة آية تختص بمسئولية الانسان عن فعله وكان من المتمنى ان يأتي النبي بما يوفق بين هذين الامرين على ان غيره من الكتب المقدسة لم يتعرَّض لذلك ولم يأْت اجتهاد العلماء في التوفيق بين هاتين الحقيقتين بفائدة غير توسيع الخلف او وضع الخلط والتعسف موضع سر لم تصل اليهِ الافهام وقد اعترف بذلك (بوسويه) في كتابه (الاختيار) حيث يقول ان الحق لايهدم الحق وتعذر جمعها على الافهام لا يستلزم عدم الاعتقاد بصحة كل واحد منها فمن المستحيل نفي الاختيار لثبوت القدرة الالهية ولا نفي القدرة الالهية لوجود الاختيار في الانسان لانها حقيقتان لا شك

فيهما وكان يرى ان هذه المسئلة مما لا تطيقه افهام النوع البشري وكان يوصي من يقترب منها (بان يتمسك بطرفي السلسلة جهده وان لم يقف على وسطها حيث يرى كيفية الاتصال بينهما) وهذان الطرفان الذان لا ينبغي افلات احدهما هما القدرة الرّبانية والحرّية الانسانية اي الاختيار والوسط الخفي علينا هو التوفيق بينهما فلسنا نعرف صنع الله الذي بهِ يحفظ على المرء اختياره ولا كيف ان السبب الكلي القديم لا يعدم السبب الثانوي الحديث قال (بوسويه) (ذلك امر يعلمه الله فلا شأن لنا فيهِ ولا يضرّنا بقاء السرّ مكتوماً لديه) (سبحانه وتعالى) وهذا هو مذهب المسلمين الحقيقي في الموضوع فان سألتهم كيف يجمعون بين قدرة الله والاختيار اجابوك من فورهم ذلك علمه عند الله كما قال (بوسويه) او قالوا ليس لأحد ان يبحث فيما يريد الله ولله ان يسأل عبيده عما يريد كما قال شيخهم البركاوي وجاء في القرآن (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون)

ومن هنا يتبين لك مقدار اعتقاد المسلمين في القضاء والقدر وانما ترجع التبعة في مذهب الاستسلام لبعض المتكلمين من علماء الاسلام دون البقية وهم الذين نفوا الاختيار حتى لا يعارضوا به قدرة الله وتفرده في الوجود ومنهم من رأى حل الاشكال في عكس ذلك وهم احزاب الاختيار فبينما الجبرية يقولون ان كل عمل للانسان صادر عن الله يقول القدرية ان المرء يخلق اعماله بنفسه ولا شك ان

ما رواه (بالجراف) اثناء طعنه على مذهب القضاء والقدر عن النبي حديث لاحد الجبرية منسوب للرسول ولم يكن من كلام النبي وهو (لما اراد الله ان يخلق الانسان تناول بيديه الطينة التي تكوّن منها وقسمها الى قسمين متساويين وقال هذا للجنة ولا ابالي وهذا للنار ولا ابالي ولذلك اشتد (بالجراف) على الاسلام كغيره من مستشرقي الانكليز ورماه بانه دين عباد القوة حيث ان الههم اله بيده جميع الاعمال اختصاصاً واستئثاراً)

ونحن نسلم انه قد يتأتى ان عالماً من علماء التوحيد المسلمين يحكم بان النعيم او الجحيم مقدران ازلاً بناءً على رواية سندها غير مجمع على صحته ولكنا لا نسلم مطلقاً ان ينحو هذا النحو علماء البحث في حقائق الامور والتنقيب في اصولها ولذلك يسهل علينا ان نقبل من (بالجراف) قوله بان دين الاسلام يرجع كل شيء الى قدرة الخالق ولا نقبل مذهب الجبرية على ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يكن من عباد القوة لكونه رأى في الله السبب الاولى في كل شيء وسنبين ان مذهبه مقول به من فريق رفيع الكلمة بين علماء الكلام المسيحيين الذين لم يطعن على رأيهم ولم يتعرض احد من الباحثين للقدح في مذهبهم وليس الاسلام من الديانات التي ترجع كل شيء الى القوة بل هو اول دين ميز بين الخلق والخالق على نحوٍ واضح بقول صريح فما ابعد الاعتقاد بالوهية الطبيعة عن شرع محمد عليه السلام فهو الذي اخرج

عن الالوهية ما ليس منها وبعيد عليهِ بعد ذلك ان يقول بان الله انما هوكل شيء ومن جهة ثانية لو رجعنا الى طبيعة افكار الشرقيين لرأيناها لا تلائم مذهب الطبيعيين وانما دب فيهم هذا الفكر من الاعجام الذين اكثروا من السفسطة في الاسلام حتى مالوا بهِ الى الطبيعة

ونقل (سالس) عن البخاري حديثاً يؤخذ منهُ ما يدل على تقرير مذهب النعيم ازلاً عند المسلمين ولا يخفى ان البخاري كان من الجبرية القائلين بان الله يخلق في المرء اعماله كلها فالانسان غير مختار وهذا ما نقله (سالس) (تقابل موسى مع آدم امام العرش فقال موسى انت آدم الذي خلقك الله وبعث فيك الرُّوح وامر الملائكة ان يعبدوك واسكنك الجنة ثم حرَّمها على الناس بخطيئتك فقال آدم وانت موسى الذي اختارهُ الله رسوله وائتمنك على اوامره فانزل عليك الالواح بشرعه ووهبك مناجاته أتعلم كم من الاعوام كتبت الشريعة قبل ان اخلق في الوجود فقال موسى اربعين فقال آدم او ما قرأت فيها (فعصى آدم ربه وغوى) فاجابهُ موسى نعم فقال لهُ آدم اتقدم على ملامتي لاني فعلت ما كتب الله اني فاعله قبل ان يخلقني باربعين سنة بل قبل ان يخلق الله السموات والارض بخمسين الف عام)

ولو اننا علمنا لمن النصر منهما امام العرش لحكمنا بوجود الاختيار في الانسان من عدمه قال البخاري : وقد سأل الناس النبي كثيراً عن المنتصر منهما فانتهى بان قال انه كان لآدم عليه السلام وهو حكم

بتأييد قول بلا توضيح تراه موضوعاً اخترعه احد الجبرية تأييداً لمذهبه ولذلك ذهب احد احزاب الاختيار الى ان الحق كان بيد موسى وقال ان النبي اجاب بان النصر كان لموسى ولا يؤخذ من هذين الحديثين سوى ان المسئلة كانت موضوع نظر الطرفين بين الانصار انفسهم وهو الواقع لان لدينا من الوقائع والاحوال ما يدلنا على انه صلى الله عليه وسلم ما كان يحب الخوض فيها فكان يشمئز من سؤاله عن ذلك ويميل في محادثاته الخصوصية عن تفسير ما انبهم مما نزل به الوحي عليه (اذا جاء ذكر القدر فامسكوا)

ومما تقدم يتبين انه يجب الاقلاع عن اتهام ابي الاسلام بمذهب الجبرية وان من التطرف القاء هذا الجرم على عاتق المتكلمين من المسلمين لما قد بيناه من ان نصفهم على خلاف هذا المذهب وقد قال (رولان) ان الفريقين لم يوضحا رأيهما تماماً ولذلك تناقضت اقوالهما كما تناقضت اقوال غيرهم وفي الواقع نرى هذا التناقض بعينه عند المتكلمين من المسيحيين

ومن تمام الفائدة ان نأتي هنا بالايجاز على ما قاله المسيحيون في اعمال المرء وتأثير الارادة الالهية فيها فهم منقسمون منذ قرون عديدة الى فريقين عظيمين لكل منهما شيعة ذات شأن خطير وهما فريق (لوايولا) وفريق ادومينيك) ولا يزال الخصام محتدماً بين الطائفتين وكل يزيد في الخلف بما اودع فيه من حب التعصب لشيعته فهولاء

يذهبون الى ما يقرب من مذهب الجبرية واولئك يقولون بالاختيار في الانسان وكل متمسك برأي قومه تمسكاً ما عليه من مزيد والفريقان يعملان على تمجيد الخالق جلَّ شأنه مع المحافظـة على مذهب شيعته وعدم الخروج عن طغمته

فاما اصحاب (دومينيك) فقد انتسبوا الى (توماس) فقيل لهم توميون وهو عنوان لهُ وقع في النفوس ومنزلة في الافكار وسلطة في المناقشات اذ يتردَّد الناس كثيرًا في معارضة رأي سدده ملك المذهب (هو القديس توماس المذكور سمي بذلك لبعد صيته وعلو كلمته بينهم) ومع كونه عنوانًا رفيع الشأن فان من انتحلوهُ عادة ليسوا على استحقاق بهِ فادعى احزاب (جامنسانيوس) الهولاندي صاحب مذهب القضاء والقدر الذي حرَّمه البابا (ليون) العاشر انهم من اتباع القديس توماس المذكور ولا يعترف اليسوعيون لفريق (دومينيك) بالتابعية اليهِ لان مذهبهم يميل الى القضاء والقدر ولم يكن توماس من هذا الرأي في اعتقادهم بل اصل المذهب رجل اندلسي يقال لهُ (بانيس) كان يدرس علم الكلام في سلمنك في اواخر القرن السادس عشر ولذلك ينسب اليسوعيون مذهب دومينيك الى هذا الرجل ولكنا سنبقي للمذهب اسم توما لا ادعاء انهُ الحق وان لنا من الدرجة ما يخولنا ان نأتي بفصل الخطاب في مثل هذا الجدال ولكن لانهُ اسم قرَّرهُ التاريخ فصار معروفًا حتى ان المتكلمين من الوعاظ يؤيدون

نسبتهم اليهِ بتغاليهم في الاعجاب بهِ وتعصبهم لذلك الرئيس الذي كان بهِ مجد عشيرته ولقد ذهب بهم التعصب حتى ادخلوا في تعاليمهم ان ما نقل عنهُ انما هو امر مقدس وحرَّموا على الخلف الخروج عنه وجعلوه صادرًا عن معصوم لا يخطأ وفرضوا على المريدين في مذهبهم يمينًا ان يقبلوا كل ما جاء عنه قضية مسلمة بغير جدال ولا مناقشة وما اشبه هذا التحريم بما جاء في القوانين الاساسية الفرنسوية حيث نصت (لا يجوز لاحد ان يطلب من الشورى المناقشة في شكل الحكومة الجمهورية) بمعنى ان كون الحكومة جمهورية امرٌ يجب الاذعان اليه مطلقًا ولو طلب من الكنيسة ان تفسر ما تناقض من مذهب هذا الرئيس لخيف على الشيعة ان تنحل روابطها ولذلك نراهم يهربون من التفسير بما منعوا من نظر المجتهدين فقد كان احزاب (دومينيك) ومعهم قديسهم توماس قبل تقرير مذهبه يقولون بان العذراء لم تكن معصومة فلما تقرَّر مذهبه قالوا معهُ انها من المعصومات وهو تناقض يحرم النظر فيهِ كما قرَّروا اما شيعة اليسوعيين فغير مرتبطة في تعاليم القديس توماس بهذا اليمين ولكنهم لا يريدون الجهر بمخالفته في دفاعهم عن الاختيار بل يطعنون على (ابانس) ويحاجون مذهبه بمذهب مولينا وهو يسوعي من البرتغال ولذلك اطلق عليهم عنوان (مولينين)

وكان الجدال عنيفًا بين الطائفتين فبدأ نحو السنة التسعين بعد

الاربعمائة والف من الميلاد ودام حتى نهاية القرن السابع عشر ولم تؤثر في الحزبين اوامر الباباوات المتكررة بمنعهما عن المطاردة وها قد عاد الجدال فظهر في هذه الايام وكان كل فريق يرمي خصمه في مبدإ النزاع بالبدع والمروق فقام بانس امام الهيكل وحرم كتاب مولينا مدعياً انهُ احتوى على مسائل كلها بدع ترجع الى مذهب (بيلاج) وهو قس ظهر في القرن الخامس انكر سبق القضاء بالجريمة التي ارتكبها آدم في الجنة وان كل خطيئة من بعده لخطيئته السبب فيها ورد عليه مولينا فرماه بانه من شيعة (كلفان) وهو العالم الشهير في القرن السادس عشر مؤسس مذهب البروتستانت في الدين المسيحي فلما رفع الخلاف الى البابا تحير في امره ولم يدرِ بماذا يحكم بين المتخاصمين وكانت قضية تتشوّق الافكار لمعرفتها ويحب كل باحثٍ في علم الكلام الوقوف على مفصلاتها وقد دامت مطروحة امام البابا (كليمان) الثامن الى بولس الخامس وتداخل سفير اسبانيا معيناً لشيعة توماس فلم يفلح بل قوي الخصام وعمد البابا بولس الخامس الى نصح الفريقين باستعمال ما امر به الانجيل من المحاسنة ولين المعاملة فكان يقول (مما لا ينبغي ابدًا ان يتخاصم اولئك القسس خصام التحاقد والاستقتال كالمتوحشين) وانتهى قاضي رومة فلم يقرّر بان الخطاء اصله خطيئة آدم ولكنه لم يقضِ على احد الفريقين بل اباح لكلٍ نشر مذهبه وقال ان التنازع في الدين غير معيب فان الله مع كل متدين والمذاهب تستنير ببعضها

كما يجلى الماس بالماس

وسار اشياع توماس في مذهبهم شوطاً بعيداً حتى فاقوا مذهب الجبرية في الاسلام وكان (بانس) يقول (ان الله هو السبب في جميع الموجودات فليس من سبب سواه فكل مسبب هو سببه وهو المسيطر على كل شيء وليس لغيره سلطان عليه) وكان خلفاؤه يجتهدون من بعده في التوفيق بين رأيه وبين الاختيار في الانسان فاضطربت اقوالهم واعجمت عباراتهم وقالوا ان كل عملٍ واجب وجائز معاً ثم فسروهُ بان الله هو الذي يبعث الارادة في الانسان ومعلوم ان الارادة مختارة فهي مسيرة حسب طبيعتها اعني حرّة في عملها وهو غاية في الخلط ونهاية في الاغماض

وانتهى الجدال اخيراً بظهور مذهب جديد يقول بتأثير الله واختيار الانسان معاً وهو المذهب الذي مال اليه (بوسويه) لكونه لم يرَ احسن منه في التوفيق بين الامرين ومبناه ان الله سبب اولى والانسان سبب ثانوي ولست اريد ان افسر مذهب مولينا غير اني اقول انه اوجد لفظين سهلا الكلام ان لم يكونا قد سهلا تفاهم هذا المعنى العظيم فكان العلماء قبله يصفون الفعل بكونه واجباً اي لا بد من وقوعه وجائزاً اي يحتمل الوقوع وعدمه مع اهمال المستحيل فاضاف هو لفظاً ثالثاً جعل معناه وسطاً بين الحالتين وقال منتظر[1] وهو عنده

(١) هو في علم التوحيد الممكن المشروط

الواجب المقيد بشرط اذا تمّ وقع والاً فلا وكان يسمى العلم بالمنتظر علماً وسطاً وبهذا يقدّر تأثير القدرة الالهية في الافعال وخلاصة هذا المذهب تغليب الاختيار على القضاء والقدر ردًّا لمذهب توماس وهو تغليب الثاني على الاول

هذا واذا رجعنا الى الاسلام وجدنا شبهاً كبيرًا بين القدرية والمولينيين وبين الجبرية والتوماسيين وهولاء وهولاء عور كما قال عبد الرزاق فاما القدرية وهم احزاب الاختيار فانهم فاقدوا العين اليمنى وهي الاقوى التي بها يبصر السبب الاولى واما الجبرية وهم القائلون بالقضاء والقدر فقط فانهم فاقدوا العين اليسرى وهي اقل ابصارًا لكنها تبصر السبب الخارجي او الثانوي وعنده (ان الذي يرى الصواب هو الذي يستعمل الباصرتين من قلبه فيرى باليمنى مصادر العمل الاولى ويرجع الى الله جميع الافعال خيرها وشرّها ثم يرى الناس باليسرى ويبصر تأثيرهم في تلك الافعال بذاتها) وكان هذا الخلاف العظيم سبباً في ايجاد الفاظ مخصوصة استعملها المتناظرون الاّ انها لا تخلو من السفسطة فقالوا ان لكل عملٍ قضاء ولكل عملٍ قدرًا بالقضاء يقرّر الله كل شيء يكون والقدر هو تنفيذ الشيء المخصوص على النحو الذي تقرّر بالقضاء وبيانًا لذلك جاء عبد الرزاق بالقصة الآتية (بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم سائرًا في الطريق يوماً اذ رأى جدارًا يريد ان ينقض فمال عنه فقال له احدهم اتريد

ان تهرب من قضاء الله فاجابه اني اهرب من قضائه الى قدره)

وظهر مذهب ثالث اراد التوفيق بين الجبرية والقدرية ومن رأي اصحابه انه ليس من قضاء مطلق ولا من اختيار مطلق بل الحال وسط بينهما والفعل الواحد نتيجة اثرين احدهما الهي والثاني انساني واشتقوا لهذا المعنى الوسط لفظاً مخصوصاً سموه الكسب الاختياري وهذا الاشتقاق يعدّ كنزًا عند اصحاب الجدال وقالوا ان الافعال تنبعث عن ارادة الله والمرء يكسبها باختياره ووفقوا بين بعض الاحاديث المتناقضة لا ليضعفوا من مذهب السنيين بل ليبينوا ان القضاء الازلي لا يزال سرًّا مجهولاً

ولما سئل النبي عن مصير صديقه ابي هريرة اجاب موجزًا (لقد جف القلم بما قدر له) ومعناه ان مصير كل مخلوق مكتوب من الازل في اللوح المحفوظ وان تجد له تبديلاً الاّ ان قوماً سألوه لمَ يعمل الناس فاجابهم (اعملوا فان الله خلق في كل واحد منكم ما يقدر به ان يفعل ما خلق لاجله) وجوابه هذا قريب من قول (هيرقليت) و(هيجل) من بعده من ان المرء خلق بين اعمال كانت واعمال تكون

ويقرب مذهب عبد الرازق كثيرًا من مذهب (التوميين) في هذه الايام فالمذهبان يتفقان في ان للاختيار دخلاً في كينونة الافعال وعلى ان ما قدر محتوم من جهة وجائز من جهة اخرى وهي نتيجة لا تفهم وهو يقول ان القضاء يتناول الفعل نفسه وكيف يقع

والكيفية هي الاختيار الانساني وجاء (بوسويه) بعده باجيال عديدة يفسر الموضوع بذاته كما فسره هو من قبل فقال يعمل الانسان العمل مختارًا بقضاء الله الذي اراد ان يكون مختارًا وهو معه في جميع ادوار الفعل حتى يكون · وليس هذا كل ما يتشابه فيه المسيحيون والمسلمون بل الحال واحد في امور كثيرة غير ما تقدم كالعدل ومسؤلية العبد ومصدر الشر وايهاب السلامة من الله في الآخرة وهكذا

الى هنا امسك القلم عن الخوض في هذا الموضوع ولكن ليسمح لي القاري، ان اذكر تشبيهاً لعبد الرازق المار ذكره تأييدًا لحجته فانه اراد ذات يوم ان يبين لاحد طلابه سبب ان الرجل ذا النفس الدنيئة يفضل الشر على الخير مع علمه بافضلية الثاني على الاول فقال له ان مثله مثل الزنجي الاسود الذي يحب اولاده على قبح خلقتهم و يفضلهم على ولد من ابناء الترك مع علمه بانه فوقهم في الجمال

ثبت والحالة هذه ان الاستسلام ليس من قواعد الاسلام بل هذا مذهب البعض من علماء المسلمين بدأوا كأمثالهم من المسيحيين بان قرّروا ان السبب الثانوي في الافعال خاضع لتأثير السبب الاصلي ثم دفعتهم حدّة الخصام فتغالوا بما شذ عن المعقول وخرج عن الصواب ذلك لان المذاهب من شأنها ان يحتدم الجدال بين احزابها فلا يتمكن العدو من ان يسود في المناظرات ولا يتحكم المعقول وحده في المناقشات كما قال (رينبون) ثم قام أناسٌ فنشروا تلك الاقوال

المتطرّفة سواء عند المسلمين او المسيحيين ولكنهم لم يؤثروا تأثيراً كبيراً كذلك يكون الحال في كل آن ولن تجد لما فطر عليهِ المرء من الوجدان تبديلاً اما عقله فسيفنى في البحث عن حل يرضيه لهذه المسئلة الغامضة فاجتماع ارادة الله وارادة المرء في كينونة كل فعل من الافعال بحث عزيز المنال كما عزَّ على العلماء عند المسيحيين ان يفقهوا معنى الرجل الالهي بشرط ان لا تنتفي احداها بالاخرى اي الارادتين وهو مذهب غير مرضي عنهُ عند الموحدين بلا استثناء · قالوا قضاء وحكم ازلي وتأثير وميل واستعداد واجتماع وكلها الفاظ انما تدل على اجهاد الفكر في استنباط المجهول ومهما اجتهدوا في بحثهم فان الخطاء لازم لتفسيرهم كيفية تأثير القدرة الالهية في افعال البشر لان نبراسهم الذي يهديهم بشرى ولن يصح ان يقاس الإله بالانسان فما اشبه عقل المرء على ضعفه في بحثه عن النسبة بين السببين الالهي والبشري بميزان فاسد ان اخذنا من احدى كفتيه يسيراً لنضيفه الى الثانية انخفضت احدى الكفتين على عجل تكاد ان تقلب الثانية وهو دليل على فساد النظر بهذه الكيفية والحاصل ان علم الله وقدرته لن يزالا يظهران لافكارنا منافيين للاختيار فينا ونحن نشعر بهِ حقيقة لا مندوحة عن التصديق بوجوده وستتعاقب الفلاسفة ويقتلون ازمانهم في البحث والتنقيب عن امر لا محيص عنهُ وليس من فائدة في حلهِ اذ الحقيقة ومقابلها من المعاني المقبولة عند جميع الناس

عالمهم وجاهلهم من دون تعب ولا اشمئزاز فالاختيار في الانسان مبدأ ادبي بديهي التصديق كما قال (كانط) فهو بعيد عن مناقشات الباحثين ولا تأثير للتنقيب فيهِ وقد قال (لوتر) اخذاً عن (كلفان) باستعداد الانسان للمؤثرات المادية ومع ذلك لا نرى المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت يشعرون بأنهم ليسوا احراراً فيما يأتون من الاعمال .

هذا واذا بحثنا عن السبب الذي اوجب اتهام المسلمين بالاستسلام لوجدناه ناشئاً من عدم ادراك الناس لحقيقة تلك الفضيلة التي هي من خصائص ذلك الدين ومنها اشتق اسمه (اسلام) وتلك الفضيلة هي الاحتمال فقليل من الديانات يأمر الناس بالرضوخ الى الارادة الالهية على النحو الذي جاء بهِ الاسلام والمسلمون يعملون بتلك الفضيلة فلا يفوقهم في التمسك بها نساك المسيحيين ومن الخطأ الحكم على المسلمين بمذهب الاستسلام لبعض الفاظ يستعملونها كقولهم هذا مكتوب عند ما تصيبهم محنة فانما هم يعلنون بذلك خضوعهم لرب السموات والارض كما يفعل المسيحيون بقولهم (فلتكن هذه ارادتك) كذلك نسبوا الى الاستسلام ثبات قدم المسلمين وعدم جزعهم من الموت واقدامهم بشجاعة تتصل بالتهور في ميادين الحروب مقدمين رؤوسهم الى اسنة الجيوش الاوروباوية في هذه الايام وهو خطأ ايضاً لان تبسم المسلم عند ملاقاة الموت واقتحامه اخطار الحروب انما جاءه من

اعتقاده الجازم بنعيم الدار الاخرة ومن شدة ايقانه وايمانه مما يجعل النفس هادئة تلقى الحتوف وهي مطمئنة ولا شك في ان الدين الاسلامي بتسهيله على الانسان انتقاله من هذه الدار قد حلّ معضلة من اصعب المشكلات ومن النقص في مثل هذا الدين ان يرمى بانهُ قلل من شجاعة المسلمين الادبية او ارخى عزائمهم

الفصل السادس

انتشار الاسلام ايام الفتوحات العربية — تخطيط ممالك الاسلام
انتشاره في افريقيا الوسطى — تجار المسلمين ومستكشفوا
الاوروباويين — الاسلام في مبداه وبعد ذلك
اسباب الانتشار — المرسلون المسلمون —
(الفوليوسيون والخواصه) — اسباب
انتشار الاسلام الالهية

قد كشفنا الغطاء عن العلل التي انتحلوها سبباً في انتشار الاسلام انتشاراً عظيماً وبينا فسادها ووعدنا ببيان الاسباب الحقيقية عند البحث عن تقدمه في هذه الازمان لانا نعتقدن ان استطلاع حال هذا الدين في العصر الحاضر لا يبقى اثراً لما زعموه من انهُ انما انتشر بحد الحسام كما فندناه من قبل ولو كان دين محمد (صلى الله عليهِ وسلم) انتشر بالعنف والاجبار للزم ان يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين

مع انا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع ارجاء المسكونة وهذه الحركة المستمرة في هذه الايام تحمل على الاعتقاد بان الاسلام هو الدين الثالث الذي جاء موافقاً لطبيعة البشر بعد ديانة بودا الهندي والديانة المسيحية . وظن اخرون بان الاسلام كان تابعاً لتمدن العرب وحضارة الخلفاء التي كانت تأخذ بالنفوس في دمشق وقرطبه وبغداد وانهُ انقضى بانقضاء ذلك قال (بارتلي صانت هيلير) (ما عاد احد من الناس يعتنق الاسلام) والواقع انهم اخطأُوا في معرفة حقيقة الامرين انتشار الاسلام وتمدن العرب فاما التمدن فهو امر يعتبر لغواً في الاسلام او هو نقيض لهُ وعلى كل حال فهو عارض فيهِ وساعدت الظروف على نموّه بجانب القرآن ولو أنهُ استمر لاطفأ نور دين النبي العربي بسقوط الامراء في مهواة عدم التصديق وقلة الايمان وانحياز الأمة الى عالم التخيل والاوهام . وبينما كان هذا حال مدن الخلفاء الاهلة بالعمران فلا تحصى شعراؤُها ولا تعد الادباء وفيها الفلاسفة يتناظرون والعلماء في المعارف يتناقشون كانت صحارى العرب وليبيا وافريقيا محتفظة على الدين الاسلامي في كماله الاصلي ولم تمسسه فيها يد اجنبي عن تعاليمه او خارج عن شرائعه هنالك كان منبع رسل ذلك الدين الذين انتشروا في الاصقاع كما تدل عليهِ قبورهم البيضاء التي نشاهدها الآن في افريقيا الشمالية

وسنحصر كلامنا في انتشار القرآن على قارة افريقيا وانما نذكر على

سبيل العرض ان له في الصين عشرين مليونًا من النفوس وان للمسلمين ويقال لهم عندهم (هوَى هوى) منزلة علية في المملكة الوسطى قال موسيو (وازيليف) وهو من الذين اشتغلوا بالاسلام في تلك النواحي ان مصيره القيام مقام مذهب (ساكياموني)[1] وان لمسمى المملكة السماوية اعتقادًا جازمًا بان الاسلام لا بد ان يسود حتى تزول بهِ تلك الديانة القديمة البودية وهي مسئلة من أهم المسائل اذ الصين اهلة بثلث العالم او تزيد فلو صاروا كلهم مسلمين لا وجب ذلك تغييرًا عظيماً في حالة تلك البلاد باجمعها فيمتد شرع محمد من جبل طارق الى المحيط الاكبر الهادي ويخشى على الدين المسيحي مرّة أُخرى ومعلوم ان أُمة الصين أُمة عاملة وان هدأَت اخلاقها وجميع الامم تستفيد الآن من عملها فلو جاءها التعصب الاسلامي ذو البأس القوي لخشيت بقية الامم من السقوط تحت سلطانها[2] وقال موسيو (مونطيط) لقد صار من المحقق ان الاسلام ظافر لا محالة على غيره من الاديان التي تتنازع البلاد

(١) هو احد ملوك الصين تخلى عن الناس في التاسعة والعشرين من عمره وعكف على العلوم حتى برع فيها وسمى نفسه (بودا) ومعناه العالم او المتنور ووضع المذهب الذي اتخذته الصين والهند دينًا وكان ظهوره في القرن الحادي عشر قبل المسيح وقيل في القرن السابع وهو الارجح

(٢) راجع كتاب موسيو دابري المسمى الديانة المحمدية في الصين وتركستان الشرقية المطبوع في باريس سنة ١٨٧٨

الصينية (١) والاسلام قليل في اوروبا ومع ذلك نراه في شمال تركيا الى ليطونية وهو ايضاً في امريكا حيث ادخله الزنوج وغيرهم الاّ ان افريقيا لا تزال بلده المصطفاة فهو فيها كالديانة المسيحية في اوروبا قال موسيو (بولنياك) يسكن المسلمون جميع الشواطئ من (سيار اليون) الى موزنبيق البرتغالية مارًّا بمراكش وولايات البربر (المغاربة) وقنال السويس واما في الوسط فيمتد الاسلام من البحر الاحمر الى المحيط الاتلانتيقي ومنهُ الى البحر الابيض المتوسط الى الدرجة السادسة من العرض الشمالي ونقدم انهُ في الساحل يمتد الى موزنبيق البرتغالية اعني انهُ يقرب من الدرجة العاشرة من العرض الجنوبي وفي (مدغسكر) كثير من المسلمين حتى ان بعض المستشرقين ذهبوا الى ان اسم الجزيرة (مدغسكر) اصله مأخوذ عن العرب قال موسيو مونطيط وأكثر انتشار الاسلام في افريقيا فهو يتقدم فيها تقدماً سريعاً وينجح نجاحاً كلياً لان ازر المسلمين فيها مشدود بما لهم من المكنة في الجهة الشمالية وهم آمنون على سلطتهم الدينية في تلك البقاع التي تغيب في الصحراء حتى تبلغ بلاد السودان الواسعة فلا ينازع الدين الاسلامي دين غيره لذلك يكثر عددهم وينمو الدين على الدوام

وقد تخطى سيره السودان واشرأَب نحو ارجاء خط الاستواء وكان له مقرّ يقرب من املاك فرنسا في بلاد النيجر لذلك عرفه

(١) راجع مجلة تاريخ الديانات في شهري مايو ويونيو سنة ١٨٨٣

ضباط الطلائع وان كانت معرفة سطحية ولكنا لم نقف على سيره تماماً الاّ عندما استولينا على الكونغو وشاهدنا القوافل الاسلاميـــة تهرب امامنا كمن يريد ان يخفي سرًّا عن اجنبي والمسلمون اليوم محصورون بين املاكنا في شمال افريقيا ومراكزنا في الكونغو وسنغال حتى كأنهم في قراصة نشدها او نفسح فيها حسب ما تقتضيه سياستنا

ولانتشار الاسلام في وسط افريقيا منبعان الاول في الغرب وهو قديم امتد اثره الى الشاطىء الاتلانتيكي حيث دخل القرآن واعتقده سكان تلك الجهات ولكنه انثنى امام تقدم الفرنساويين من ناحية سنغال الى بلاد النيجر ولم يزل ينثني آناً فآناً حتى خرج من (تنبكتو) وهي منبعه الاصلي الى (سقطو) ومنها الى (كانو) ثم الى (كوكا) والظاهر انه استقر فيها واما المنبع الثاني ففي الشرق وهو حديث العهد و يصل اثره بين (ودّاي) ودارفور بمحركين هما المهدي ورئيس الطائفة السنوسية ويفصل بين هذين المنبعين انهار (شاد) و (شاري) و (لوغوني) الجنوبية واهل الشرق اهل حروب متعصبون اما قوم الغرب فيميلون الى التجارة والمسالمة وكان الفريقان يتقدمان بالاسلام بين الوثنيين المجاورين لهم على امتداد اثنى عشر الف كيلو متر حتى تلاقوا بالفرنسويين قبيل الكونغو نواحي نهر (شاد) فلم تقرّ اعينهم لهذه اللقيا لانهم كانوا هجروا البلاد التي هاجمها الكفار وظنوا انهم يأمنون لقاءهم في الجنوب فلا يجدوا غير الوثنيين ممن لم يعرفوا

للاورو باويين خبرًا ويقال ان الاوروباويين الذين التقوا معهم اتوا من اقطار بعيدة في الجنوب حيث تمت لهم فيها السيادة ولهم فيها مراكب ومدرعات تروح وتغدو في انهار واسعة تجري من الشرق الى الغرب

ومن الامور ذات الاهمية الكبرى بالنظر الى انتشار الاسلام توسط الاوروباويين في افريقيا وحلولهم في بلاد نهر الكونغو لانهم بذلك قسموا القارة الافريقية من طرف الى طرف وربما يخشى على حركة الاسلام الذي كان يمتد رويدًا رويدًا مطمئنًا من الشمال الى الجنوب كما يخشى على التجارة التي كانت تروح وتغدو مع القوافل الاسلامية فينعكس مجراها فتميل الى الغرب نحو نهر الكونغو لذلك اشتغل رؤساء المسلمين بهذا الامر اشتغالاً لا مزيد عليه حذرًا من انقلاب الحال في تلك البلاد ولقد يفيد المتأمل ان يعرف كيف كانت نتائج مقابلة الاوروباويين القادمين من جهة الكونغو مع المسلمين النازلين من السودان لولا ان هذا البحث يبعدنا عن مقصدنا فلنقتصر على البحث عن العلة في حياة الدين الاسلامي تلك الحياة القوية وما السبب في انتشاره هذا الانتشار العجيب

وهنا يجب البحث فيما اذا كان الاسلام دينًا عموميًا بطبيعته كدين بودا وكالدين المسيحي او هو دين خاص بأمة من الامم وهو بحث طرق بابه من قبل موسيو كينان والجواب عليهِ صريح لا شك فيهِ

من الجهة العلمية فالاسلام دين عام بغير شبهة لاننا نشاهد من المسلمين في كل أمة على اختلاف الاجناس والبلدان فمنهم الشرقي والتتري والغربي والهندي والزنجي . بقي علينا ان نعرف مع موسيو كينان ان كانت هذه الحالة العمومية ناشئة من طبيعة الدين او متولدة من اسباب أُخرى وهو يرى ان الامة العربية ليست مهده الطبيعي وانما هو ينتهي اليها وليس في طبيعة هذا الدين انهُ دين عمومي وهو قيد ناشئ عن نظر في الموضوع من احدى جهاته فقط لان الدين الاسلامي الذي منشأَهُ القرآن والسنة هو الذي تولد عنهُ ذلك الاسلام الذي يعترف المؤلف المشار اليهِ بانهُ دين عام لا محالة وانتقاله من حالته الأُولى الى الثانية حصل تدريجاً بطريقة يتعذر ضبطها وذلك بتأْثير الزمان والأُمم المختلفة التي اعتنقته بحيث يتعسر التفريق بين تقدير تأْثيره من حيث هو في اصله وتأْثيره بعد ان صار كما نراه في هذه الايام فلا يغضبن موسيو كينان اذا حذفت تقسيمه الاسلام الى اولى ولاحق وقلت فيهِ كله كما قال في كتابه انهُ دين عمومي

على ان الانتقال من حالة اوَّلية الى غيرها ليس عرضاً خاصاً بالدين المحمدي بل تشترك فيهِ جميع الاديان فمما يعزى الى حالة الاسلام الحالية انتشار مذهب الزُهد والاعتقاد بالاولياء وبعض الاموات وكثير من التعبدات الأُخرى وسببه ان المرء طاع في الدين باصل الخلقة ولكل أمل خاص ومن هنا تولدت تلك المذاهب

والافكار ارضاءً لشهوات تشتد ظهوراً كلما تقادم العهد عليها ولم ينج الاسلام من لوازم هذه الضرورة بل خضع اليها وادّاها حقها وهذا من اكبر اسباب تقدمه ولكنهُ ايضاً سبب من اسباب تناقضه لان تلك المذاهب تخالف مبدأه ُولقد تجد النفوس التي رفعت اعنتها الى السماء ومالت الى التجرُّد عن الحواس ورغبت في مشاهدة الحضرة الرَّبانية طريقاً مسلوكاً في مذهب التصوف يسهل عليها النسك والتعبد وقلما يلومهم بعض المتشددين من العلماء وان كان التزهد بهذه الصفة اي الاعتقاد بالوصلة بين العبد والله مما يخالف مذهب التوحيد ومن الناس من يرى نفسه بعيداً عن ربه فلا يستطيع ان يرفع دعاءه اليهِ وهو في بعض الاحيان غريب (كقوله إلهي ارزقني من الابناء ذكوراً ولا تجعل ماشيتي تلد الا أناثاً) ولمثل تلك الافهام وجد في الاسلام مذهب الواصلين والذين صار بيدهم توزيع كثير من المبرات في اعتقاد العامة واليهم صار يرحل الجمع العديد من القوم الذين ضلوا سواء السبيل فيجتمع اليهم قطاع الطريق والشحاذون والنسوة العاقرات وشبان يريدون الثروة او الجاه وشيوخ نضب عود قواهم مع اننا لو رجعنا الى القرآن لرأينا التصديق بالاولياء غير شرعي ولوجدنا ان النبي (صلى الله عليهِ وسلم) حرم الاعتقاد بهم (والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الاَّ ليقربونا الى الله زُلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيهِ يختلفون) والواقع ان الاسلام في مبدإِ ظهوره ما كان يقبل غير الاعتقاد بالله الواحد

الاحد وقد بقي هذا المذهب كما بدأ فهو اليوم جامعة تلك المذاهب واليهِ ينتهي كل اعتقاد

ومن مزايا الاسلام انهُ دين رحيم فهو يعد الجنة والنعيم لكل مؤمن من دون تمييز على التقريب فالمحارب يموت شهيدًا والعالم يكتفي بتلاوة القرآن والاثنان مقبولان عند الله وللفقير مكان علي وللغني درجة رفيعة

ولقد كان فكر النبي في الالوهية من ارفع الافكار واسماها ولكنهُ تساهل كثيرًا في تقدير الانسانية لذلك تسامح للناس كثيرًا في رغباتهم وما كانوا اليهِ يميلون . نعم يجب على الرَّجل ان يعتقد و يعبد الله ولكن لا يجب عليهِ ان يحارب نفسه ويعذبها العذاب الاليم ليقهرها اذ لا ينبغي لهُ ان يطلب لنفسه الكمال ولن يصل اليهِ لان من اراد الكمال فكأنهُ اراد ان يساوي الاله في جلاله وهو اسوأ الاعمال واخبث الرُّغبات وكان رسول الله يميل الى بعض ما يميل الناس اليهِ من المشتهيات فكان يقول على اسلوب بسيط (حبب اليَّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرَّة عيني في الصلاة) ولقد يعسر الجمع بين هذا التفضيل و بين الميل الى النساء حتى يكاد العقل أن يرى في الامر تهكماً ولكن هذه الجملة لا تحتوي في الحقيقة على معنى خفي بل ما يفهم من لفظها هو الذي قصد منها ومن وعاها فقد عرف الاسلام كما ينبغي وقد ورث المسلمون عن نبيهم ميلهم الى ما كان يميل اليهِ فللصلاة في

قلوبهم منزلة سامية وليس التعبد بها عندهم خاصاً بالنساء والاطفال كما هو عند المسيحيين بل هي مزية من مزايا الرجال واحدى جهات فضلهم على النساء ولا يواظب عليها الصبي او المرأة الاّ نادرًا لاعتبارها عند المسلمين من اعظم الأمور التي تلزم فيها صفات الرجل التام

ومع ذلك فمن الشهوات ما نهى النبي عنهُ وامر بمجاهدة النفس فيهِ فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهي فكان من وراء ذلك ان نجت الأمم الاسلامية من مرض المسكرات وهي الداهية التي تفجع اليوم أمماً كثيرة من المسيحيين وكانت احدى الاسباب في اضطراب المجتمع الانساني وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الأمم الاسلامية

هكذا جذب الاسلام قسماً عظيماً من العالم بما اودع فيهِ من اعلاء شأن النفس بتصوُّر الذّات الالهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس صلوات في كل يوم وبما اشتمل عليهِ من الترفق بطبيعة البشر حيث اتاح للناس شيئاً مما يشتهون واعظم عامل في انتشار الاسلام خصوصاً عند الأمم الزنجية (السود) بساطة مذهبه وسذاجة تعاليمه وهو سبب موجود في القرآن نفسه فهو بذلك يلائم طباع الهمج كثيرًا الذين لم يعرفوا ديناً من قبل ذلك · دين لا اسرار فيه وكلمته اي كلمة الشهادة يعتاض عنها عند الاحتضار باشارة تدل عليها كرفع السبابة الى السماء اشارة الى وحدانيـة الله تعالى فكلما وجد الرجل

الجاهلي امامه دينين متحدين في حقيقتين وحدانية الله وخلود الروح وهما الاسلام ودين عيسى تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئاً على تينك الحقيقتين ويعتنق الاسلام بلا محالة وهي قوة يفضل بها القرآن الديانة المسيحية في الانتشار وكانت معروفة عند القرن السابع عشر لذلك نقرأ في كتاب القس (ماراشي) الذي سماه (الرد على القرآن) (ولا يغيبن عن ذهن القارىء ان تلك الطائفة الشريرة او المخرفة او ما تشاء من الاسماء لا تزال حافظة لكل ما في الدين المسيحي من الامور الظاهرة الوضوح القريبة التصديق مضافاً اليه ما يوافق نظام الكون وقانون النشأة الدنيوية فقد ابعد عنه احاجي الانجيل التي نخالها في اول الامر غير صحيحة لا تدركها العقول كما انه جرّد تعاليمه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر مما جاء في ذلك الكتاب وبهذه الواسطة تمكن من رفع العقبتين اللتين يحس كل واحد منا بانهما الحاجز بينه وبين الدين الحق الصحيح وهما عقبة الروح وعقبة الجسم وهذا هو السبب في ان الوثنيين الذين يريدون ترك دينهم في ايامنا هذه يعتاضون عنه بالاسلام دون الديانة المسيحية)

بقي علينا ان نستقصي الاسباب والوسائل المستعملة الآن لانتشار الاسلام وهنا ايضاً نجد سبباً عظيماً من اسباب انتشار القرآن فرافعوا راية الاسلام هم في العادة تجار بلد واحد تضافروا على جلب الرّزق من بلاد قاصية فالمبشر الاسلامي (وليلاحظ ان هذا الاسم غير

صحيح عند المسلمين اذ ليس لدينهم مبشرون منقطعون لهذا الامر كالمسيحيين) لا يوجب عند الامم الجاهلية خوفاً منهُ ولا فرقاً لمقدمه كما يحصل لهم ذلك من المبشرين المسيحيين وهم كما قال موسيو مونتيل يعتنقون دينه لانهُ لم يعرضه عليهم فما اشبه الامم بالاطفال ترغب عما يقدم اليها وترغب فيما تحسبه ممنوعاً عليها اما الطرق المستعملة في انتشاره فكثيرة متنوعة واحسن موقع نبحث فيهِ عنها جهات افريقيا بجانب الاملاك الفرنساوية قرب خط الاستواء فليس من جهة يشاهد المرء فيها تقدم الاسلام احسن منها

والقائمون بهذا العمل هم (الفولبوسيون) وهم الجنس الابيض في السودان ولهُ الاولوية على غيره · وهو اعرق في الاسلام واليهم اشرنا عند ما قلنا بان احد منبعي الاسلام اقاليم نهر شادو وقد شاهدهم المكتشفون الفرنساويون في (شارى) و (لوغونه) والفولبوسيون يقصدون نشر الاسلام وتوسيع متاجرهم ثم هم يرمون الى غرض آخر هو اتساع نطاق سلطتهم فلهم خطط سياسية في الاستعمال مثل اوروبا يعملون لاجلها في افريقيا قال موسيو (مستران) ان الذي الفت ذهننا كثيراً لما قدمنا الى جهات شاري هو النظام السياسي الذي تمكنت ملوك الاسلام في اواسط افريقيا من ايجاده بين الامم التي دانت لكلمتهم) وللفولبوسيين مساعد كبير من عشائر يقال لها الخواصه وهم من الجنس الابيض واقرب عهد بالاسلام واقل منهم منزلة فنسبتهم

اليهم كنسبة اليهودي للعربي ولقد شبهنا باليهودي لانه تشبيه قال بهِ جميع الرواد والمكتشفين من الاوروباويين فالخواصة أُمة لازمة لكنها محتقرة كما هو شأن اليهودي يحب المال ويتكهن طرق اكتسابه ولا يخاطر بمتجره فيسير خلف (الفولبوس) وهو رجل الحرب والفتوح ولا يستقر بهِ القرار الاَّ اذا آمن وتمكن والخواصة هم اهل المعارف والعلوم في السودان حتى كانهم احتكروها الا ان علمهم قاصر على شيء يسير كالقراءة والكتابة في اللغة العربية وهو كافٍ لنفوذهم في الوثنيين لان هؤلاء يعظمون الكاتب والقارئ الى درجة العبادة تقريباً ومع ذلك فلا يزال الخواص وضيع الدرجة في عين متبوعه الفولبوس فالفولبوسيون هم انصار الاسلام في الحقيقة والخواصة منهم بمنزلة الوعاظ والفقهاء

ويعزى امتداد سطوة الفولبوس دينياً وسياسيًّا الى تداخلهم في الخصومات التي تتكرَّر بين القبائل الوثنية المجاورة اليهم فما تخاصم الاهالي الاَّ وتداخل الفولبوسيون اما الجهات التي اجتمعت فيها قلوب الوثنيين وخفت وطأة الشقاق لديهم فلا يدخلون بينهم بدينهم وسياستهم الاَّ بالعناء ويتوصلون الى غرضهم في الغالب عند ما ترتكب جريمة قتل او سلب حيث يوجد قوم من المسلمين لانهم يرسلون اليهم الكتائب لتقتص منهم وبذلك ينتشر دينهم وتعلو كلمتهم. ومهما تنوعت اسباب تداخلهم فان طريقة سياستهم تدل على حذق واقتدار فيها ومرجعها الى مبدإِ الحماية الذي توصلوا الى وضعه بين الأُمم الهمج كما

رواه موسيو (مستر) فمن احتمى بهم فقد أمن ومن خرج عن طاعتهم اصبح مهدداً ومتى احتمت بهم قبيلة ذهب رؤساؤها الى ملوك الاسلام في السودان فيولونهم المناصب ويلبسونهم الخلع و يردونهم الى اوطانهم يحكمون فيها باسم سلاطين المسلمين وتحت رعايتهم فان كانت القبيلة او القرية عظيمة ارسل السلطان اليها رسولاً من قبله ليلاحظ حكومتها بالنيابة عنهُ والسفراء كلهم من الخواصة يكونون بجانب الحكام مستشارين ذوي كلمة ونفوذ ومعارفهم وما تعلموه من الاحكام بالقرآن تؤهلهم الى القضاء لمنفعة اللاجئين اليهم وهم كالعلم يجتمع حوله التجار الوافدون من السودان وقد يتفق ان بعض القبائل الوثنية لا تخضع من اوّل ظهور الفولبوسيين بينهم هنالك تسطو عليهم قبائلهم فتسلب منهم وتأخذ ابناء الرؤساء فتبعث بهم الى السودان حيث يتربون على مبادئهم ومبادئ الخواصة وبعد زمن يرجعونهم الى بلادهم فيقومون فيها كنواب عنهم مثل الحكام الذين ترسلهم الممالك الاوروباوية في مستعمراتها وفي تلك الاثناء ينتشر الاسلام بمجرّد الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد بدون ادنى اكراه ولا تعيين رسل او مبشرين اذ بمجرّد ان يشتري الوثني خرقة القطن من احد الخواصة ويستر بها عورته يأخذ في تقليد البائع في الصلاة كالقردة ويتعسر بيان اللحظة التي يصير فيها مسلماً حقيقياً لان اسلامه يأتيه تدريجاً ومتى كثر عدد المسلمين في بلد اقام فيها الفولبوسيون مدارس يتولى الخواصة التعليم

فيها ولكنهم لا يتداخلون في نشر الاسلام مباشرة بين البقية بل يتركون ذلك للخواصة او للاهالي انفسهم

ونذكر من الوسائل الناجحة في يد الفولبوسيين لانتشار الاسلام الزواج فان سلاطين السودان يتزوّجون من العائلات الوثنية لهذه الغاية ولا تمكث النساء واولادهنّ حتى يصير الكل من اقوى الاسباب على انتشار الدين الاسلامي وقد اشار موسيو (رونان) الى ذلك في بعض كتبه حيث يقول (من الصعب ان يصم المرء اذنه اذا تقدمت اليهِ النساء والاطفال ومد كل يديه اليهِ وطلب منهُ ان اعتقد بمن نعتقد) على ان الزواج هو السبب في وجود انصار الاسلام الاوّلين وكثيرًا ما تزوّج النبي لخدمة دينه لا لشهوة في نفسه فقد صرّح بأن الله اباح لهُ الجمع بين عشر نساء خلافًا لما فرضه لجميع المسلمين وهو اختصاص تدرك غايته لمن تأمل في الأُمور لانهُ كان معصومًا عن النساء حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره وتزوّج بالسيدة خديجة بعد وفاة زوجها الاوّل وقضى خمسة وعشرين سنة بعد ذلك مع هذه الزوجة وكانت تلده ولم يمل الى ما اباحته العرب قبل الاسلام واباحه القرآن بعد ذلك من تعدد الزوجات ولم يتسرى ثم توفيت خديجة سنة ٦١٩ وعاش بعدها اثنتي عشرة سنة تزوّج في خلالها بعشر نساء ليس بينهنّ الاّ اثنتين كانتا بكرًا والباقيات مطلقات او مترملات قال (رولان) ان كثرة زواج النبي كانت ليزيد في نشر اوهامه وهوقول

يقصد بهِ قائله القدح ولكنهُ حجة على ان النبي لم يكن في تعدد الزوجات شهوياً

هذه هي اهمّ الاسباب في انتشار الاسلام ولست ادري ان كانت تكفي لادراك سرّ هذا الدين في انتشاره او انه يجب البحث معها عن اسباب سماوية غير ان الاسلام خرج من ذرية اسماعيل وسرى في الارض كما خرجت المسيحية من ذرية اسحق وقد بارك الله في ابناء الخادمة كما بارك في ابناء السيدة

ونحن نعلم ان يهوذا قال لابراهيم عن اسماعيل انه سيبارك فيه ويكثر من نسله كثيراً وكرّر له ذلك بقوله انه سيبارك له في ابن الخادمة فتخرج من صلبه امة كبرى لكونه من اولادك واعاد يهوذا هذه البشرى مرة ثالثة لوالدة ذلك الطفل الذي نجا في الصحراء حيث رمي ليموت عطشاً وقصة ظهور الملك الى هاجر من اجمل الروايات ووصف بادية الظماء ولهف الام على ولدها من الطف ما يقال (نضب الماء في الزق ورمت هاجر الطفل تحت شجرة وابتعدت قليلاً ثم جلست امامه على مسافة مرمى النبل وقالت لست اصبر ان ارى ابني يموت ثم رفعت صوتها بالبكاء وقد كان بكاء الطفل قد سبقها الى السماء فناجاها الملك من قبل الله ما لكِ يا هاجر لا تخافي فقد سمع الرب صوت الطفل من المكان الذي وضعتيه فيه فقومي وساعديه على القيام وليشتد ساعدك على حمله فسيكون من ذريته امة كبرى)

ولقد ارتعشت يدي عندما مددتها لازيل الغطاء عن الكتاب المقدس كي انقل الآيات التي سطرتها ولولا ما قاله الاب بروغلي من ان تقدم الاسلام امر مندرج تحت ما بشر به ابو المؤمنين لما تجرأت ان اطبق تلك الآيات على الاسلام ولا ذهبت الى ان في انتشار هذا الدين سرًّا من الاسرار الربّانية

الفصل السابع

﴿ الاسلام في الجزائر ﴾

استعصاء المسلمين على التنصر – المبشرون بغير رسالة – جمعيات الدين في الاسلام – غرض تلك الجمعيات – تحوُّل الهيئة في المسلمين – التقليد – التورات

شاهدنا الاسلام يبرهن على قوّته وحياته باكتساب الوثنيين في اواسط افريقيا وتجنيدهم تحت راية القرآن وله كذلك في الشمال الشرقي من بلاد الزنج وفي مصر العليا (السودان) وفي (سريناق) ما يدل على قوّته الغريبة وسيره المدهش اذ قامت مملكتان قويتان مملكة المهدي ومملكة امام جغبوب منذ خمسين سنة على هيئة حكومات تشخص الحكومة الدينية التي ارادها النبي الاسلامي كذلك توجد في الزّاوية المقابلة لهاتين المملكتين مملكة ثالثة في شمال افريقيا وهي على نسقها ولا تزال تقاوم هجمات الديانة المسيحية ظافرة عليها ونعني بها مملكة

مراكش ولا شك في ان سلطانها مع ما عليهِ بعض العشائر التي تسكن البلاد الخاضعة لحكمه من عدم الاذعان تماماً لسلطته سيكون اذا ألمت بتلك الاقطار المحن حامي حوزة الدين الاسلامي في الغرب باجمعه ونحن نترك البحث في حال هاتيك الممالك الاسلامية التي اجتمعت فيها السلطة الدينية والسلطة السياسية في يد حاكم واحد طبقاً لقواعد القرآن وهي البلاد الممتازة التي حفظ الموحدون في مكة لها اسم دار السلام وهو الاسم الذي تميل اليهِ نفس مصر وتركيا على غير جدوى حيث التمدن الغربي قد كدر صفاء المذهب الاصلي ونقتصر على الاسلام في الجزائر وفي ممالكنا الافريقية حيث يزاحمه الدين المسيحي والحكومة المسيحية وهي البلاد التي سماها المسلمون دار الحرب اي دار الجهاد في الاسلام والبحث عن الاسلام فيها يدور على ثلاث مسائل · هل احدث الانجيل تغييرًا في القرآن واذا فرضنا ان الاسلام لم يزل محفوظاً هل حصل تقرب بين المسلمين والمسيحيين يرجى معهُ حصول الامتزاج التام في المستقبل وهل الجهاد اعني خروج المسلمين عن طاعة حكامهم المسيحيين لا يزال امرًا منتظرًا يهدد فتح هاتيك الاقطار .

فاما الاسلام فليس من اهله من يمرق عنهُ الى غيره وبعيد عن فكر المسلمين تصور هذا الامر حتى انهم لا يجدون لفظاً يعبرون بهِ عن صفات من يأتيه كما انهم تحيروا في وصف المسلمين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنساوية لان فيها معنى من معاني الردة ولذلك اضطروا

الى استعمال لفظ من الفاظ اللغة الفرنساوية ليطلقوه اسماً عليهم فقالوا (متورني) باسكان الميم وضم التاء ومعناه المنقلبون

ومن الصعب ان يكيف الانسان حالة مسلم يريد احد المسيحيين ان ينصّره حتى لو شبهناهُ بمسيحي متنور يريد وثني ان يميل بهِ الى عبادة الاصنام لكان التشبيه ناقصاً والسبب في استعصاء المسلم على التدين بالنصرانية استعصاءً قوياً هو احتقاره النصارى واعجابه كل الاعجاب بكونه من الموحدين وقد يعتقد بعضهم ان فضل دينهم يفوق على النصرانية بدرجات يستحيل معها على المسيحيين ان لا يوقنوا بصحة الاسلام حتى انهم يتخذون مسالمتنا اعترافاً ضمنياً منا بتلك الافضلية ولانهم انما يعبدون الله تعبداً ذهنياً وليس لدينهم من علامات او معدات خارجية ويرون في احتفالات النصارى ضرباً من ضروب العبادة الوثنية ويسمون ارباب الانجيل اهل الكتاب ولكنهم لا يجعلونهم في الرتبة التي تلي رتبة المسلمين بل كثير منهم يمقتونهم اكثر من مقت الوثنيين لكونهم غيّروا ما انزل الله عليهم من الدين بعد ما علموه

تلك هي افكار المسلمين في الديانة المسيحية وبديهي انها مانع حصين يحول بين النصرانية وبين التقدم فلقد نجح المرسلون في تنصير الأمم المختلفة التي انتشروا فيها سواءً كانت متبربرة او متمدنة ولكنهم لم يروا في طريقهم بلداً قام في وجههم وسدت عليهم فيهِ جميع ابواب الفتح كما لاقوا من المسلمين لاننا شاهدنا الوثنيين المتمدنين تركوا دينهم الهمجي

لعدم موافقته لما وصلت اليهِ عقولهم من التهذيب وكان لهم من تهذيبهم معين على تلقي المعقولات المحضة فسهل ذلك على المرسلين عرض مذهبهم بطريق التقرير المنطقي وتمكنوا من اقناعهم حتى ان القديس بولس نفسه كان يلاقي كثيرًا من الوثنيين الذين يتركون آلهتهم لتبينهم كذبها ويرى من بعض اليونان ميلاً الى اخذ الأمور بالدليل والبرهان وقد سهل ايضاً تنصير الوثنيين المتبربرين بما للمرسلين عليهم من المزية في العلم والافضلية في سمو الادراك ولكن اي مرسل واي خبير يمكنهُ ابدًا ان يزحزح المسلم عن تمسكه بدينه ويجعله يعبد ما احتقر ويحتقر ذلك الدين المتين الذي يرى فيهِ مجده الاعلى وكيف يمكن لأولئك المرسلين ان يزيلوا من فكره ما تمكن منهُ ضد الديانة المسيحية الى الابد وهو لا يقبل المناظرة فيها ولا يطيق الجدال عليها

ولقد تسأَلوا عن امكان محاربة الاسلام بالعنف والقوّة حيث هو لا يقبل التبدل بالاقناع والحجة ولكنهُ ما كان يتيسر للفرنساويين ايام الفتح ان يخضعوا المسلمين للدين المسيحي كما فعل الملك شارلمان بل اضطرت الكنيسة الى السكون كما التزمت جانب المسالمة في هذه الايام بين الأمم والمسالمة حكمة منها ولكنها لا نقبلها بصفة مبدأ من مبادئ الدين المسيحي بل تردها ردًّا . هكذا كان محظورًا علينا كل قهر في الدين طبقاً لمعاهدة الجزائر حيث التزمت فيها الحكومة الفرنساوية بواسطة الجنرال (بورمون) ان تحافظ على ديانة رعاياها من العرب

وتحترمها وقد كاد ان يحصل استثناء سنة١٨٦٨ ذلك ان اسقف الجزائر اخذته الحمية واراد ان ينصر عدداً كبيراً من المسلمين فجمع كثيراً من اليتامى بعد القحط المهلك الذي ابتليت بهِ الجزائر وعمدهم ولكن الجنرال (مكماهون) حاكم البلاد اذ ذاك تداخل وابطل هذا المسعى لمخالفته لما تعهدت بهِ فرنسا ومن عجائب المتناقضات ان في الجزائر الآن من الكتاب من يأسف على ترك تلك الطريقة ولو انهم كانوا في عاصمة بلادهم لاصطفوا بين اشد الناس دفاعاً عن حرّية الاديان فكأنهم يرجون حكومة تسعى في تفريق الاديان بالهدايا وبذل الاموال من جهة وتضطهد المسلمين الموحدين في دينهم من جهة اخرى ولو انهُ قام في مبدأ الفتح قس ماهر وساعده امير يميل الى انتشار الدين المسيحي من نفسه او بتأثير النساء عليهِ فجمع ذلك القس اليهِ كل ساخط على الحكومة والحال الجديد ووعدهم بالمال وعزّة الجاه لكان لنا سنه ١٨٧٠ آلاف مؤلفة من العرب قد تركوا دينهم وتربوا تربية فرنساوية حقة

فاستعصاء المسلمين على التنصر بواسطة المرسلين واستحالة اخضاعهم بالقوّة هما السببان اللذان يعترضان تنصرهم والمرسلون من الكاثوليك هم اوّل المعترفين بوجوب العدول عن الوعظ مباشرة ولكنهم مع ذلك متمسكون برسالتهم فلم يملّوا من الجهاد في سبيلها ولم تنحط عزائمهم امام صلابة الاسلام فأينما نزلوا مهدوا الطريق وآووا الفقراء والمساكين واقاموا في خدمة المرضى ونشروا التعليم بين الاطفال قال موسيو

(سريفاريا) ولكنهم لم يحوموا حول مسئلة الدين مطلقاً وهم انما يزرعون البعد عن الدين مع كونهم من الاحبار على انهم ان لم ينجحوا في ادخال الانجيل بين العرب فقد كانوا من احسن الوسائل لنشر نفوذ الدولة الفرنساوية والحكومة مخطئة في عدم حمايتهم والمجافاة في معاملتهم مع انهم قصروا حياتهم على خدمة الدين ومع ذلك فقد خالفوا ضمائرهم وعملوا على ما فيهِ منفعة فرنسا تركاً لما لا يستطاع ولات حين زمان اصلاح ما فات فقد انتشر المرسلون من الانكليز البروتستانت بين القبائل وجعلوا يقلصون ظل سيادتنا هنالك ترسل الدولة البريطانية التوراة تحملها الرعاة الى تلك البلاد التي فتحها جنودنا مرّات متتابعة كما ترسلهم في جميع ارجاء المسكونة وعلى الخصوص حيث تخشى تقدم النفوذ الفرنساوي

ولقد بقي الاسلام سليماً على التمام في الجزائر الاّ ان المسلم لاحظ كونه محكوماً بمن لا يعتقد بدينه فاخفى في نفسه ما يضمره له من البغض والاحتقار ولولا ان قوماً من اصحاب الدين يحركون على الدوام في قلبه عاطفة الايمان لصح الامل بضعف اسلامه مع مرور الايام ولاولئك القوم جمعيات سرّية تعمل دائمًا على تجديد الدين الاسلامي بين جميع الموحدين وعلى الخصوص بين الامم التي اخضعها المسيحيون

ومن المعلوم ان فتوح العرب وحكومة المغاربة في اسبانيا بعده جمعت بين افريقيا واوروبا زمناً طويلاً ولكن انتهى الامر بان انزوى

الاسلام الى ما بعد بوغاز جبل طارق وانقطعت الصلة بين القارتين بطرد المغاربة سنة ١٦٠٩ وشخص الناس الى بلاد الغرب كأنها ملجأ للقرآن منيع لا تصل اليه الاطماع وارض بعيدة عن الاختلاط بالمسيحيين واعتقدوا بأن الدين الاسلامي يصير كأنهُ في بلاد عرب جديدة يزاولهُ الناس على صفائه القديم فلما فتحت فرانسا بلاد الجزائر انتهكت حرمة الاسلام ورجعت الصلات ثانية بين افريقيا الاسلامية واوروبا المسيحية وانفتح الباب في ممالك الغرب الى عدو اشد وقعاً على القرآن من الجنود المجندة وهو التمدن الحالي ففطن المسلمون الى ما احدق بهم من الاخطار وارادوا تمكين الجامعة وتوحيد الروابط بينهم وهي عند المسلمين اشد قوّة منها لدى غيرهم من الأُمم التي تدين بدين واحد لان القرآن شريعة دينية وقانون مدني وسياسي ومن ذلك وجدت حركة في النفوس غايتها مقاومة النصرانية بجميع الوسائل الممكنة وعلى الخصوص مغالبة التمدن الجديد باسم الايمان. قال القائد (رين) وتأتي قوّة هذه الحركة الاسلامية من تعدد الطوائف الدينية التي وجدت من اوّل هذا القرن وعظم شأنها في جميع الانحاء وصار لها تأثير شديد في قلوب الناس ولهم رسل ومريدون يطوفون البلاد الاسلامية التي لا حد لها وغير الاسلامية كمبشرين او مستعطين او قاصدين للحج ويصلون بهذه الكيفية بين الاقطار من مكة الى جغبوب الى القسطنطينية وبغداد الى فاس وتنبكتو الى القاهرة الى الخرطوم الى زنجبار ثم كلكتا

وجاوه ومنهم التاجر والمنجم وطالب العلم والطبيب والصانع والشحاذ والسائل والمشعوذ والمتشرد والمجذوب تصنعاً او المأخوذ على غير شعور منهُ برسالته وكلهم يلاقون صدوراً رحبة ومنزلة كريمة بين المؤمنين الذين يحمونهم من النوازل ويدرؤن عنهم تهجم الحكومات

ونحن لا نريد ان نأتي على تاريخ تلك الطوائف الدينية المنتشرة في الاسلام كما فعل القائد (رين) بل نكتفي بالاشارة الى سبب نراه العلة في انتشار هذه الجمعيات في ايامنا وبعدذلك نبين المقصد الذي يرمون اليهِ في الجزائر

فاما المشايخ المعروفون عند المسلمين فلا تأثير لهم عليهم لان العبادة ذهنية او هي قلبية فلا تحتاج لقوّام كما انها لا تحتاج لمساجد او جوامع ومن اعجب العجب انه لا درجات في تلك الجمعية مع انها دينية صرفة فلا يعرف الناس الاّ رئيساً واحداً هو الامام اي خليفة النبي فاليه مرجع السلطتين الدينية والسياسية ومن هنا يسهل على المتأمل معرفة الاضطراب العظيم الذي حصل في المسلمين من فتوحات المسيحيين ودخول التمدن الاوروباوي في بلادهم لان نتيجة ذلك ضياع السلطة الوحيدة التي يخضع لها الاسلام اذ لم يعد يوجد الآن امام عام للموحدين نعم ان سلطان القسطنطينية يعتبر نفسه خليفة الرسول ويتسمى باسم شيخ الاسلام الاّ ان هذا اللقب في اسناده اليه لقب تشريف ليس الاّ غير معترف به في الولايات الخارجة عن حكمه والدول

الاورو باوية افرغت جهدها في تحقيره بعوامل التأثير والتذليل التي الجأت الباب العالي اليها فلو لم تقم تلك الجمعيات بحفظ الروابط بين جميع المسلمين وجمعهم في صعيد واحد لاصبح المسلمون كقطيع عظيم من الماشية بدون راعٍ ومن هنا تعلم ان كثرة الطوائف الدينية في الاسلام وكثرة المريدين فيها في هذه الايام ضرورة اقتضاها التكاتف على حفظ الدين والتوازر على صيانة الجامعة بين المسلمين

وقد كانت هذه الضرورة اشد في الجزائر منها في غيرها من البلدان فان الفرنساويين اوجدوا فيها جمعية روحانية اسلامية رسمية لمقصد لم يدم الاّ كما يدوم الخيال هو التأثير على الاهالي بواسطة الدين ورتبوا لاعضائها مرتبات يتقاضونها من الحكومة فكانوا شنعة في اعين المسلمين ولو انهم بقوا لتوصلوا في الغالب الى استمالة بعض الاهالي ولكن الطوائف الدينية الحرة قاومتهم واسقطت مقامهم بين الناس ونجحت في مقصدها تماماً وليس اليوم من كلمة تطاع الاّ اذا كانت صادرة عن احد رؤساء هاتيك الطوائف واولئك الرؤساء يميلون على الدوام الى الزهد والتقشف ولهم تعبير في القول لا يفهم عمال الحكومة منهُ شيئاً اذا عثروا على بعض الفاظه فهم يدعون الناس تحت طيّ هذا الطلسم الى مقاومة التقدم ومغالبة التمدن باقصى المجهود ذلك انهم آمنون من جهة تنصر المسلمين فهو امر معدوم كما قدمنا ولذلك اجمعوا امرهم على مقاومة سير التمدن لكونه ربما ادى الى فتور في الاعتقاد عندهم وهم الذين

يحيون روح احتقار النصرانية في النفوس و يجعلون اجتهادنا في تأليف اهل الجزائر واستمالتهم الينا يذهب هباء منثوراً

ومع انتشار الطوائف الاسلامية في الجزائر وقوة تأثيرها فانها لم تتمكن من منع تغيير الاهالي من حيث هيئتهم الاجتماعية تغيراً محسوساً والعامل في هذا هو الاحتلال الفرنساوي كما اشار اليه موسيو (شاتليه) حيث قال تنقسم اهالي الجزائر الى ثلاثة اقسام فمنهم الرعاة الرحل واصلهم من العرب ومنهم الرّيفيون اصحاب الزراعة واغلبهم ينتمون الى القبائل ومنهم اخلاط المغاربة ومنهم المدنيون وهم التجار والصناع وقد حصلوا على شيء من المعرفة الصناعية واصلهم مختلط منهم من المغاربة الذين اختلطوا بالاتراك وامتزج فيهم ايضاً دم العرب والقبائل اه

و يختلف تأثير التمدن في الجزائر باختلاف هذه الطبقات الثلاث ولكنهُ احدث في كل قسم منها ميلاً الى حالة مدنية جديدة فقد خفف الرحل روحاتهم وجيأتهم وصاروا نصف رحل و بعضهم مال الى زراعة الاراضي الخصبة في مرتفع الوديان ومنخفضات الصحراء وتدحرج سكان الارياف الى التخلق باخلاق المدنيين واما هؤلاء فقد تأثروا كثيراً لاختلاطهم باصحاب المعاملات التجارية ومعاشرتهم لاصحاب الصناعة الاوروباوية وتعودهم على الاخذ والعطاء مع اهالي البلاد الغربية وكثيراً ما اخذ العربي الذي يسكن المدائن عن التمدن الاوروبي رذائله ومعائبه وخالف اوامر القرآن وشرب المسكرات وهو

في الغالب مفرطاً في تعاطيها واكل الاطعمة المحرمة الاّ لحم الخنزير فهو ينفر منه باصل فطرته ومع ذلك فهو لا يزال يحافظ تمام المحافظة على بعض اوامر الكتاب كصوم رمضان حتى ان الباغيات يصمن في اماكن فحشهنّ

ومع ذلك كله فان عوامل التمدن لم تتمكن من اضعاف الاعتقاد في قلب المسلم وان زحزحتهُ قليلاً عن المحافظة على جميع اوامر القرآن بل لا يزال الايمان عندهم تامّاً كاملاً خلافاً لما يراه موسيو (شاتليه) فانهُ يحسب ان عدد المسلمين الذين لا يؤمنون ولا يقيمون الفروض يزداد كل يوم في مدائن الجزائر وعندنا ان هذا القول صحيح بالنظر لترك الواجبات ولكننا نراه مخالفاً للواقع من جهة ضعف الاعتقادات فما من مسلم صار غير مقيد في الاعتقاد بل يجوز انهُ اهمل جميع الواجبات ولكن اعتقاده لم يتحوّل وصحيح في الاسلام ان يبقى الرجل مسلماً وهو لا يعمل بما يمليه عليهِ القرآن

ولعمري لست ادري ان كان هذا التغيير على نحو ما شرحناهُ عنوان تقدم في اهل الجزائر وانهُ رفع من اخلاقهم وزاد في رغد عيشهم وعلى الخصوص قلل من بغضهم للمسيحيين. انا لا اظن ذلك فاني وان سلمت بان بعض قبائل البدو الرحل مالوا الى الزراعة ولكني لا ارى في انتقالهم من البداوة الى الزراعة ومن الزراعة الى سكنى المدن والامصار موجباً لتهذيب الاخلاق ورفع درجة الآداب لان معيشة

القبائل على حالتهم الفطرية مهما كان فيها من النقص هي اشد احتفاظاً على الاخلاق واعظم باعث على التمسك بأصول الادب فليس من سلام على النفوس الاّ معيشة الرجل بين اهله بعيداً عن المدن وما حوته فالمعيشة في الصحراء ناشفة يابسة ولكن ما ضمته الخيام ليس عرضة للتبدد والضياع اما اذا سكن العربي في المدينة خصوصاً المدن الاوروباوية فانه يكون على مقربة من دواعي اللهو وتزداد حاجاته ويطلب القهوة والحلوى وتميل امرأته الى الملابس القطنيــة ويده لا تقوى على سد هذه المطالب كلها فيعيش في ضجر مادي ينشأ عنهُ ألم ادبي ولقد شوهد كثيرًا ان الضنك يشتد على القبائل بقدر تقربها من المدن الاوروباوية فاوّل القبائل التي خضعت لحكم الفاتحين واختلطت باقوامهم كانت اوّل القبائل التي لحقها الدمار واباده الاندثار وانحطاط المدني ادبياً هو السبب في احتقاره من ساكن البادية اكثر من حالته السيئة التي يعيش فيها · وليس لفرنسا ثمرة تجنيها من انحطاط رعاياها المسلمين في الجزائر ادبياً ومادياً ولهذا نرى الحكومة بحثت عن مداواة هذا الداء وارادت تهذيبهم فاوجدت التعليم الفرنساوي عندهم وانشأت مدارس للتعليم الابتدائي واخرى للتعليم الثانوي ومدارس للصنائع ولكنها ما كانت لتنجح في هذا المسعى لانهُ مهما حسنت نوايا المسيحيين لا يأمنون من حبوط مساعيهم في تمدين الاهالي وان شئت قل ان كل امرٍ يأتي على ايديهم ممقوت ومرذول لذلك

كان التعليم الفرنساوي معيباً من الاصل ولم ينجح في شيء حتى ولم يقلل من نفور الاهالي نحونا واليك ما قاله احد اعضاء جمعية التعليم موسيو (شارفريا) في هذا المعنى (اذا اردت ان تعرف مقدار بغض الاهالي لنا فانظر الى درجة تعليمهم الفرنساوي فكلما زاد تعليمهم وجب الحذر منهم) وقد مكثت زمناً طويلاً اقاوم هذه الحقيقة التي توجب اليأس وتقطع الرجاء ولم ارجع عن رأيي الآ لما رأيت جميع من شاورتهم فيها متفقين على تقريرها)

وقد قال حاكم الجزائر نفسه موسيو (ترمان) في مجلس الادارة الاعلى سنة ١٨٨٦ (لقد دلتنا التجارب على ان اكثر الناس عداء لنا هم اولئك الذين علمناهم كثيرًا) على ان الحكومة نفسها قد اعترفت بعجزها عن تحويل الجزائريين الى فرنسويين بواسطة التعليم الفرنسوي ولم تتمكن من احياء التعليم العربي وان اكثرت من فتح المدارس كما ان جميع الصنائع والحرف الاهلية قد اندثرت على مقربة من مدارسها الصناعية والفنية التي انشأتها . والذي نستنتجه من هذه التجارب التي لم تجدِ نفعاً هو ان مسئلة التقريب بين العنصرين الاوروبي والاهلي لا يمكن حلها بمعرفة الحكومة لان يد الادارة يد ثقيلة لا تصلح لعمل لطيف مثل هذا وحدة الموظفين مانعة من التبصر فلا صبر لهم على انتظار الثمرة الصغيرة زمناً مديداً وبالجملة فان كل وسيلة تتخذ في سبيل التقريب الذي نبحث فيه رديئة نعم قد يمحو الدهر بعض المتناقضات

ويولد بعض المتشابهات ولكن لن يحصل اتحاد تام بين العنصرين مدى الابد وكم من اوهام توهمها الناس في مسئلة الجزائر يضحكنا اليوم تذكار بعضها كالذي تخيله موسيو (دولانجل) ايام كتب تقريره على مشروع استشارة الامة سنة ١٨٦٥ حيث ذكر فيه هذه الجملة (ولم يبقَ الاّ زمن يسير حتى تفتخر الامة التي بلغت عواطف الشرف فيها الدرجة القصوى بالاشتراك في اعمال الامة الفرنساوية التي لها في العالمين مقام رفيع) ومن الخيال ايضاً ما ذهب اليه موسيو (لوروا بوليو) من امكان التوصل لجعل العرب رعية صادقة من المخلصين في الولاء فمستغرب ان يفكر اولئك القوم في رجاء هذه الفوائد من الجزائر وفي ان يصل اهلوها الى ثقرب يحملهم يوماً من الايام على حب الوطن الفرنساوي ولو صحّ هذا لكان امرًا خارقاً للعادة لم يسبق له مثيل في التاريخ فانّا نعلم ان اختلاط العنصرين ببعضهما دام تسعة قرون في بلاد الاندلس من سنة ٧١٠ الى سنة ١٦٠٠ ولم نشاهد مع ذلك ان وطن الغالب صار وطناً للمغلوب ومع ذلك فالوهم عندنا متسلطن في ان نطالب الجزائريين بما نطالب به الفرنساويين من الولاء والاخلاص

اتفق سنة ١٨٨١ انه في مبدإ ثورة ابي عمامة قام احد القواد وكان من اشدهم موالاة لنا وتوجه برجاله الى جنوب ولاية حوران لقتال المنشقين فلما رجع علم بان قبيلة خرجت عن الطاعة ورفعت

خيامها ورحلت بنسائها واولادها وماشيتها فذهب الى مراكش في طلبها وعاد بها بعد سنة من الزمان واقنعها بوجوب الطاعة والخضوع فاحيل الى المحاكمة امام مجلس عسكري بحجة انه خان الدولة الفرنسوية . وفي الواقع انه لم يخلص لنا الود اذ كان يلزمه على رأيهم ان يترك لنا عائلته واملاكه ولكننا نعلم ان كثيرًا من الفرنساويين لا يودون ان يكون مثل هذا الطلب محكاً لوطنيتهم ومعيارًا لمعرفة صدقهم لبلادهم

ولسنا نود ذكر جميع الخيالات التي تصورها الباحثون في طريقة التقريب لان ذلك شرح يطول فمنهم من ذهبت به الاحلام الى تصوُّر الجزائر آهلة بعرب يلبسون القبعة ويلتحفون السترة الصغيرة (جكيته) وقد نسوا لغة الوحي المقدسة وجعلوا يرتلون القرآن بلغة الفرنساويين نقلاً عن ترجمة (كزيميرسكي) . ورأينا ان البون يبقى شاسعاً بين المسلم والمسيحي وان من السعود ان نقرب الشقة بين الاوربي والعربي وان هذا التقرب يحصل من نفسه وهو ينشأ من التجاء المستعمرين الفرنساويين الى العرب في حرث الارض وغرسها ولو ان المستعمرين يعاملون العرب برفق ولين ويقسطون معهم لافادوا في هذا السبيل اكثر مما افادت اللوائح والقوانين اذ لست ادري لمَ ان الرجل منهم يكون في باريس من الاحرار المتطرفين فاذا جاء الجزائر نزعت نفسه الى احياء اشد الازمان في حكم الشرفاء تعسفاً واجحافاً وعندي ان

أليق الناس بالعمل المطلوب هم المرسلون لا الكاثوليك فلا تترقى الاهالي في معارج المدنية مع بقائهم على دينهم الا بهم نعم ان الترقي يكون بطيئاً ولكنهُ يصح ان يسمى تقدماً ودليلنا على ما نقول حالة القبائل التي توطنها المرسلون فانهم توصلوا مع اهلها الى درجة عظمى

مضى على الاسلام في الجزائر نصف قرن لم يؤثر فيهِ الاحتلال الفرنساوي كذلك تفانت امواج التمدن الاوروباوي تحت اقدام مقاومة الطوائف الدينية في تلك البلاد ولو ان تلك الطوائف تعرف من نفسها اقتداراً على قذفنا في البحر لتقيم بعدنا مملكة اسلامية جامعة (أي بين السلطة الدينية والسلطة السياسية) لاقتحمت الاخطار وقلبت الحكومة المسيحية ولكنهم يرون الغرض بعيداً لذلك هم يقصرون مساعيهم على احياء روح البغضاء في نفوس تابعيهم مما يكفي لتزكيته غالباً تلاوة بعض الجمل التي ملئت سخطاً على النصارى على ان جميع رؤساء الطوائف المذكورة ليسوا واحداً في مقاومة التمدن الغربي بل يحذو بعضهم حذو من يضع الشرع ليتقيد به غيره ويستفيد من مكتشفات ذلك التمدن التي حرموها على المرابطين واكبر الطوائف واشدها تمسكاً بمبدئها هي طائفة السنوسية وهي التي يخشى منها اكثر من غيرها ولها شيخ ذو دهاء ينظر اليه البعض كجامع وحدة الاسلام وهو رجل رآى انه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنساوية في الجزائر مقاومة صريحة فعدل عن فتح الجزائر الى فتح

ارض غيرها للاسلام وعلم سيدي السنوسي ما احزن المسلمين من حكم المسيحيين كما علم موسى الذي نجاه الله ما اصاب قومه من فرعون واراد خلاصهم من يد الكفار وان يقودهم من دار الحرب الى دار السلام فناداهم ان اخرجوا من دياركم ان ارض الله واسعة الفضاء وانتقل الى ارض فسيحة الجوانب خالية من السكان فلحق به كل مسلم لا يرى له بقاء مع المسيحيين و يود الهرب من معاشرة الكافرين ولكن ليس في تلك الارض عسل يجري ولا ضرع يدرّ كما كان في بلاد الكنعانيين بل هي صحراء ليبيا الشاسعة التي اختارها السنوسي ليهجر العرب اليها بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والبوسفور ذي الرياض والمناظر ومع ذلك فالنداء يلبي كل يوم من جميع بلاد الاسلام ويقيم الواردون في تلك الرمال من غير سخط ولا ضجر كما ترك بنو اسرائيل مصر في غابر الازمان وما منهم من يأسف على الكسكسو الذي كان يأكله بنهمة تحت حكم الذي كفر وقد اخذت الصحراء تتحوّل باعمال المهاجرين ففيها اليوم آبار ونخيل ومثلهم في ذلك مثل قبائل العباديين الذين هاجروا الى (مازاب) في الصحراء وعمروها

وفي اجتماع المسلمين الذين لم يرضهم حكمنا حول جغبوب خطر اشار اليه وكلاؤنا في طرابلس ومن الواجب على الدول الاوروباوية ان تأخذ حذرها منه اما الجزائر فهي ترى فيهم عدوًا لها وما دام الامر بالنظر اليها دائرًا بين عدوين فهي تفضل بعد اولئك القوم لانها

تكون ببعدهم عنها آمنة مطمئنة من اعمال قوم متعصبين . ومع هذا لو قدر لفرنسا انها احتاجت في احد حروبها الاوروبية الى الاستعانة بجيوشها الافريقية وانتهزت احدى الدول ضعفها في افريقيا فحركت ضد حكومة المسيحيين طائفة السنوسي والطوائف الاخرى فانهُ يخشى من حدوث ثورة تسوء عقباها في الجزائر ولكنا نرى في هذه الحالة وهي اسوأ حال يمكن تصوُّرها بالنسبة الى الحكومة الفرنساوية ان انشقاق الرؤساء واحقاد الطوائف تمنع الثورة من ان تمتد الى جميع ارجاء البلاد فالفوضى علة الاسلام الباطنية وهي ايضاً في الغالب علة الضعف عند جميع ولد سام فان اسماعيل يضرب خيامه على الدوام تجاه مضارب اخوته ولولا الانقسام الداخلي والاضطرابات التي حدثت بين المسلمين في غابر الازمان لما نجت النصرانية . وهذه الاسباب نفسها تضعف العزيمة عن القيام بتوحيد كلمة الاسلام ولولاها لما حفظت فرنسا املاكها مع ما ارتكبته من الخطأ وما تأتيه من الاغلاط في افريقيا الشمالية وهي املاك ستبلغ بمقتضى النمو الطبيعي عما قليل عشرين مليوناً من المسلمين

والخلاصة انهُ لا يخشى من ثورة عامة في الجزائر ولكن لا تزال تلك البلاد معرضة للقلاقل الثانوية وتنشأ هذه الاضطرابات بغير المؤثرات الدينية فكثيراً ما تثور القبائل من نفسها ورغماً عن نصائح الرؤساء ومشائخ الطرق لانهم واقفون تمام الوقوف على ما نحن عليهِ

من الاقتدار في كبح جماحهم ولذلك فهم لا يرمون الى حركة عاقبتها وبال عليهم وعلى التابعين لطوائفهم بل ان اكبر اسباب الثورة في الجنوب رغبة رؤساء القبائل في استرجاع امتيازاتهم لانهم من بقايا اولئك القوم الذين سادوا قديماً في البلاد وفي جهة التل ضنك الاهالي وخطأ الموظفين في اجراء مقتضى بعض اللوائح والقوانين ومع ذلك كله فانا نرى ان كل ثورة بدأت لا تلبث ان يعزوها اصحابها الى مصدر ديني فينادون بالحرب المقدسة كما ينادون باحد الرؤساء الدينيين ذوي النفوذ قائداً عاماً لحركتهم وان عارض وابى . ومن عادة تلك الحركات انها تبدأ قليلة الاهمية ولكنها تعظم ويكبر شرّها بخطأ الموكلين في اخمادها ولو ان الحكومة لاحظت جانب العدل والحكمة في ادارة الاهالي والغت الامتيازات القديمة التي لرؤساء القبائل تماماً واختطت السكك الحديدية في جنوب البلاد واصلحت من نظام الجيش لقلت حركات الثورة في بلاد الجزائر وهدأ المسلمون من شواطئ البحر الابيض المتوسط الى شواطئ نهر النيجر

خاتمة

والذي نستخلصه مما تقدم انه يجب على الدول الاوروباوية التي تميل الى التوسع في الاستعمار ان تتعرف ديانة رعاياها او اصدقائها المسلمين كما ينبغي اذ الدول لا تزال حتى الساعة على اعتقادها الذي كانت عليه ايام القرون الوسطى وهو ان الاسلام صورة من صور الديانة الوثنية اللهمَّ الاَّ نفرًا قليلاً من المستشرقين الذين لا تأثير لارائهم في السياسة مع انه لو جاز عقلاً ان ترتب الديانات التي دانت بها المخلوقات لوجب جعل الاسلام اولها بعد ديانة التثليث لانها اي الديانة المسيحية بلا شك ارفع منه من جهة المعقولات فلا يجوز للمسيحيين ان يرموا الاسلام بالوثنية على ما بينه و بين النصرانية من جهات الاتفاق حتى صح (لحنا ماسين) ان يقول انه بدعة مسيحية نعم لا يقول المسلمون بالوهية ابن مريم ولكنهم يجلونه كاكبر الانبياء (اذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك اليَّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة) . ويعترفون بان مولده من المعجزات (واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانًا شرقيًا فاتخذت من دونهم حجابًا فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا قالت اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيًا قال انما انا رسول ربكِ لاهب لكِ غلامًا زكيًا قالت أنى يكون لي غلامٌ

ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغياً قال كذلك قال ربك هو عليَّ هينٌ ولنجعله آيةً للناس ورحمة منا وكان امرًا مقضياً فحملته فانتبذت بهِ مكاناً قصياً فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربكِ تحتكِ سرياً وهزّي اليكِ بجذع النخلة تساقط عليكِ رُطباً جنياً فكلي واشربي وقرّي عيناً فإما ترين من البشر احداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن أُكلم اليوم انسياً فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً فاشارت اليهِ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقياً والسلامُ عليَّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيهِ يمترون ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى امرًا فانما يقول لهُ كن فيكون) كذلك يعتقدون ان جبريل هو الملك الذي نزل بهذه البشرى كما انهُ هو صاحب الوحي بالقرآن ويكرهون اليهود لانهم اضطهدوا المسيح وارادوا ان يقتلوهُ ولا يعتقدون بموته كما تدل عليهِ آية (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوهُ وما صلبوهُ ولكن شُبِّهَ لهم وان الذين اختلفوا فيهِ لفي شكٍّ منهُ ما لهم بهِ من علمٍ إلاَّ اتباع الظن وما قتلوهُ يقيناً بل رفعهُ الله اليهِ وكان الله عزيزًا حكيماً) وقد التفت الامير عبد

القادر الجزائري الى ما يوجد بين الدينين من التقارب فخال لهُ امكان التوفيق بينهما وكان من ذوي المدارك السامية قال لو اصغى اليّ المسلمون والمسيحيون لازلت من بينهم موجبات التنافر ولاصبحوا اخوانًا في الظاهر والباطن وكان يشبه الانبياء الثلاثة الذين قالوا بوحدة واجب الوجود بثلاثة اخوة من أُمهات متفرقة (راجع كتابه نداء الغافلين) ولكننا لا نمني النفس بتحقيق ما خطر ببال ذاك الامير فان الاحقاد التي تتولد بين اعضاء العائلة هي التي لا مرد لها والتشابه بين بعض القواعد لا يسد ذلك الخرق العظيم الذي انفرج بين المسيحيين والمسلمين فقد يجوز ان يقلع المسيحيون عن تجهلهم للاسلام و يعترفون بأَنهُ دين قريب من دينهم ولكن المسلمين لن يقبلوا ان يكون معنى التثليث غير تعدد الالهة ولا يعتقدون بأَن خطأ آدم هو راس خطايا بنيه وانهُ السبب في ذنوبهم ولا يقولون بأَن المسيح تجسَّم في صورة الانسان ولا بانهُ افتدى النوع البشري بنفسه و يقول جميع علماء التوحيد عندهم ان جعل المسيح ابن الله لا فائدة فيهِ ان كان الوالد والولد إلهًا واحدًا ومتناقض ان كان كل إلهًا قائمًا بذاته على ان علماء اللاهوت من المسيحيين مختلفون فيما اذا كان التجسم يحصل لولا خطيئة آدم. كذلك لا ينبغي لنا ان نعلق الآمال بالوصول الى تحوُّل رعايانا المسلمين في الجزائر الى فرنساويين بل يجب علينا ان نجتهد في ان نعيش معهم على ما يلزم من المسالمة والموادعة وهو حل سهل بسيط لست ادري لمَ اهمله

الباحثون وقل الاقبال عليه كما انني لم اقف على السبب الذي دعاهم الى الحكم بانه ليس لمسلم الجزائر الاّ ان يتحوّل او ان يفنى وفي الواقع ان الفرنساويين يفرحون بالتحوُّل لكونه يلائم ميلهم الى ايجاد الوحدة في كل شيء فكل موظف من الفرنساويين يحلم ان تصير مدينة الجزائر مثل باريس مع ما هي عليه من اختلاف ارضها ومناخها وسكانها ولذا اعتادوا على ان يعدوا من التقدم صيرورة بعض القرى مختلطة وتحولها بعد ذلك الى بلاد لا فرق بينها وبين البلاد في فرنسا وهي ملاحظات تافهة تمنع الناس من الوقوف على حاجات الجزائر الحقيقية اما منح الجنسية الفرنساوية للاهالي فانهُ لا يفيد الاّ في بعض الشؤون الادارية المحضة ذلك لانهُ يوجب بعض تغيير في الصورة ويسمح للتقارير الرسمية بتجسيم الاعداد ولكنهُ لا يجعل الجزائرين وطنيين فرنساويين ومع ان معاهدةُ الجزائر لا تسمح لنا بإيجاب جنسيتنا عليهم فنحن لا نفتأ نعرضها كأَنها امتياز يختص بهِ قوم دون آخرين وكأَننا نظن ان المسلمين يعتبرون من الامتيازات ما يحول بينهم وبين العمل بمقتضى ديانتهم ومع هذا يرى موسيو (روسل) ان في تجنيس الجزائريين بالجنسية الفرنساوية حلاً للمسئلة وان الاختلاط يحصل مع الزمن فيتحوّل السواد الاعظم حتى يصير فرنساوياً وتضيق البلاد على من يخرج عن الجمهور لتغيرها وتحوّل نزعات الاهالي فيضطرون الى الهجرة جنوباً ويخلفهم قوم آخرون ارفع شأناً واعلا مكاناً وعندي ان

هجرة القبائل الى الصحراء جنوبًا وهمٌ باطل كالقول بامكان مضايقة الجزائريين فينزحون عن البلاد رويدًا رويدًا اما انقراض الاهالي شيئًا فشيئًا كلما دخل التمدن الاوروبي بلادهم فنحن لا نصدقه إلاَّ قليلاً لان احتكاكهم بالمتمدنين ربما قلل من وسائل العيش لديهم ولكنهُ لا يؤثر في وجودهم بل لا يزالون يتناسلون اكثر من الاوروبيين ونضيف على ذلك ان المسكرات التي استعملها الاورباويون للتعجيل على وجود بعض الأُمم المغايرة لهم لا تؤثر عند اهالي الجزائر لكونهم يمقتونها مقتًا شديدًا

اذن وجب علينا ان نعيش في الجزائر بجانب سكانها وفاتحيها الاقدمين وان نقلع عن التطلع الى التحويل او التجنيس فكلاهما وهمٌ وخيال ولا خوف من هذا بل الخوف يأْتينا اذا اوجبنا عليهم التجنس بجنسيتنا فنالوا ما لنا من الحقوق السياسية · ولو تنزل حكامنا الى تعرف امة الجزائر التي يجهلونها او يعرفونها على غير الواقع وعملوا على مرضاتها ببعض ما تميل اليه وتخفيف شيء من اثقالها لانتفى الخوف منها وزال خطرها وتصير اعظم مساعد على الاستعمار ولرب معترض يقول ان تلك سياسة مبهمة فنجيب بانها كذلك وهو مقصود لان السياسة المرتبة على قواعد ثابتة واصول معروفة من قبل اضرّت بالجزائر اكثر من سياسة التجارب بحسب الظروف والاحوال غير انه يجب مع ذلك ان تبنى السياسة المطلوبة على مبدأ واحد يتخذ اساسًا لها وهو ان تكون

مضادة لليهود على خط مستقيم ففي ذلك ضمان السلام والامن في تلك البلاد لان ما اتاه موسيو (كرميو) من جعل اليهود كلهم في الجزائر رعايا فرنساويين كان شؤماً على الدوام وما شؤمه آتٍ من ان العرب اشمأزت لحصول اليهود على ما لم يحصلوا هم عليهِ كما ذهب البعض بل هو آتٍ من ان ذلك العمل اوجب اطلاق السراح لقوم يرى العرب انه كان من الواجب بقاؤهم تحت سيطرتهم وخالف ما في نفوسهم من عظيم الاحتقار لليهود ومكن هؤلاء من الانتقام على ما اصابهم من المسكنة في سالف الازمان اما العرب فهم يأنفون من التجنس بالجنسية الفرنساوية لكون ذلك يلجئهم الى ترك دينهم كما قلنا ولكنهم يبغضوننا لانا منحنا هذا الامتياز لاناس اعتادوا ان يروهم دون اقدامهم وقد وصل تغطرس اليهود اليوم ان لم نقل وقاحتهم الى حد في الجزائر بحيث صار الخصام قريباً بين الفريقين فالمسلمون لا يطيقون احتمال ما احتمله المسيحيون وقد ازفت الساعة التي يقومون فيها جمعاء ليعيدوا بني اسرائيل الى ما كانوا فيهِ من الخضوع والامتهان ويكون الوقت قد فات لارجاع اليهود الى ملتهم وقد لا يسلم المسيحيون من محن الجزائر

ولقد نستخلص من ابحاثنا هذه امراً آخر بالنظر الى سياستنا في افريقيا الوسطى وهو امر سهل النوال ذلك اننا لا نشير على فرانسا بالتحالف مع المسلمين وان كانت هذه هي السياسة التي رآها فرنسوا الاوَّل ولكننا نرى انهُ يجب عليها معاملة الاسلام في افريقيا بما يسعها

من المحاسنة والتجمل فقد رأينا قبائل الفولبوسيين والخواصة اوصلوا نفوذهم الى تلك الاقطار الشاسعة التي تكتنف املاكنا في الكونغو فساروا سيرًا متتابعًا من شادوا الى خط الاستواء وادخلوا الاسلام اينما حلوا ومن الصعب علينا ان لم نقل من المستحيل ان نوقف تيار هذه الحركة العظيمة فلنجتهد في الانتفاع منها بقدر الامكان ولنمتنع من التداخل فيما يحصل بين الأمم الاسلامية والوثنية من الانحلال والتكوين بل علينا ان نراقب هذه المطامع بين تلك الشعوب ولنترك الفولبوسيين يختطون من البربر ممالك على النسق الفطري القديم ولنحذو حذو سلاطين المسلمين فنضيف حمايتنا الى حمايتهم على أولئك القوم المنحطين ولنحذر على الخصوص من الوقوع في خطأ سياسة الاستعمار وهو اعتبار دائرة النفوذ مجالاً للكسب والاعمال ولو عارض قوم بانه لا ينبغي ان يكون هذا شأن فرانسا المسيحية وانه يجب عليها ان تمانع جهدها انتشار الاسلام حول املاكها في افريقيا لتحصنت في الرد عليه برأي الكاردينال (هرجوتر) وهو ان تاريخ الكنيسة يعتبر ان فناء الامم الوثنية في الأمة الاسلامية من المقاصد الالهية المحتمة قال الكاردينال (على الاسلام ان يهيء الأمم العريقة في الهمجية واخصها الأمم الافريقية الى التمدن فانها بما فطرت عليه من الانحطاط في الادراك وما تعودته من الشهوات محتاجة الى التحوّل عن الوثنية الى الاسلام ليتسنى تحويلها من الاسلام الى النصرانية لكن أنى لنا في

الوصول الى نقل تلك الأُمم من القرآن الى الانجيل وكيف يمكن ان يصير الوثنيون عبادّ المسيح بعد اعتناق الاسلام وهو الدين الذي يتمكن من القلوب فلا يفارقها هنا يختلط علينا المقصد الالهي فلا ندرك مرماه على انهُ لو لم يكن للاسلام من فائدة الاَّ تحويل عبدة الاصنام من وثنيين الى موحدين وترقية اخلاقهم وملكاتهم لكفى بذلك داعياً الى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال جرياً على قاعدة العمل بأَخف الضررين

ملحقات

ملحقات

﴿ الملحق الاول ﴾

افكار المسيحيين في القرون الوسطى بالنسبة للنبي والدين الاسلامي

لو اردنا ان نكتب كل شيء في هذا الموضوع لوجب ان ننشيء بابًا مطوّلاً حتى نستوفيه حقه لانه مع اهميته لم يلتفت اليه احد من الكتاب واذا قارنًا بين ما كتبه كل فريق منشورًا في الكتب وما قاله الفريق الآخر يمكننا ان نفهم السبب في ذلك التخيل الغريب الذي تخيله القصاصون بل والمؤرخون عن الدين الاسلامي فجميع ما تصوّروه في تلك الاعصر يشتمل على بعض الافكار وان ظهر لنا انه خالٍ عن المعنى

وذهب موسيو (بيجونوا) الى ان السبب في كثرة الاقاصيص والحكايات الخرافية التي ابتدعت عن الهة المسلمين هو تشعب طوائف ذلك الدين وهو تعليل غير مقبول لان تلك الطوائف لم تغير مطلقًا في مبدإ القرآن وهو وحدانية الخالق وما كانت الا مذاهب لكل نظر مخصوص في بعض مسائل التوحيد والمعقولات كالبحث عن ذات الله وكون القرآن قديمًا او حادثًا والاختيار في الانسان وغيرها وهي مسائل لا يشتغل بها القصاصون والشعراء

ولست اريد ان ابيّن في هذا الموضع ما كان الناس يعتقدون فيما نسبوه الى المسلمين من التماثيل والاوثان مثل (ماهومد) (وابوللون) و (ترافاجان) و (نوارون) و (مارجو) وغيرها وانما اردت ان اجمع بعض ما كتب في تلك الازمان من المقتطفات التي يقف القارئ بواسطتها على افكار اجدادنا في الاسلام ونبيه وهي افكار من الغرابة بمكان حتى ان من لا يهمهُ مثل هذا الموضوع يرتاح لتلاوة هاتيك القصص والاشعار مما ينسى معهُ الموضوع الذي كتبت فيهِ

فمن تلك المقتطفات ما شاع في جميع الازمان عند الفرنساويين حتى قبل الحروب الصليبية من ان النزاع بين النصرانية والوثنية (يشير الى الاسلام) يفضي الى حرب عجيب في بابه وقد جعلوا لذلك الحرب اشكالاً متنوعة نتيجتها كلها استظهار المسيحي على الوثني ووصفوا تلك الحروب باوصاف مختلفة تتناوب فيها الضربات وتنثني الاجسام تحت السياط وتتبادل النبال ويحتدم القتال الى ان ينتهي بضربة عاتية وهجمة قاسية فينفذ السيف في الاجسام وفي اثناء هذا الحرب العوان يتناقش الخصمان في علم اللاهوت الاعلى وكل يقدم دليله الاقوى ويقابلان بين دين المسيح ودين محمد ويميل الواحد منهما الى اقناع الثاني بصحة دينه وصدق ايمانه ومن هذا القبيل ماجرى بين (غليوم دورانج) المسمى غليوم ذا الانف القصير و (قرصوط) المسلم صاحب الطول الهاشمي وهو بيت القصيد في رواية تتويج الملك لويز وهو ايضاً

قسم من قصة مطولة يقال لها قصة (غليوم دورانج) وتحتوي على ثمانية عشر فرعاً وعدد ابياتها مائة وسبعة عشر الفاً وثلاثمائة وفيها وصف المسلمين واخلاقهم ودينهم

ذكر صاحبها ان الملك شارلمان ارسل غليوم في امر الى البابا فذهب الى رومة في اربعين فارساً وبينما هو يزور قبر القديس بطرس القريب من قبر (نيرون) وهو احد آلهة المسلمين في بعض القصص انتشر خبر قدوم المسلمين بعد انتصارهم في (١ يوليه) فحزن الناس اجمعون وجمع البابا على عجل جيشاً اسلم قيادته الى غليوم وعما قليل اقبل جيش المسلمين حتى صار على ابواب المدينة فتقدم جيش غليوم نحوه واصطف الجيشان للطعان والضرب والنزال ثم تشاور الرؤساء في امرهم وقرّ قرارهم على ان يقتتل الرئيسان والفريقان يشهدان فمن غلب فجيشه الظافر وكان خصمه هو المكابر والكافر . هنالك برز الفارسان وسط الجموع وشخصت نحوهم الابصار وجعل الشاعر يقص ما كان من امرهم بكلام يشغل الافكار ووصف يستوقف الابصار فاذ ارتعدت فرائص غليوم ضج المسيحيون وهاجوا وانهال البابا ونزل بقلبهِ الهلع الاكبر وصاح المسلمون باصوات الفرح والتهليل واذ اصاب قرصوط جرح من خصمهِ انقلب الفرح بكاءً وتبدل الحزن ابتهاجاً قال وكان قرصوط لابساً درقة من الزرد متقلداً بالفولاذ مستعلياً ظهر جواد الله اكبر ما اعظمه واما غليوم فلم يشأ الشاعران يصف لنا لباسه وعدته

بل ذهب الى ان البابا احضر اليهِ اثرًا من آثار الرسول بطرس وهو ذراع لهُ محفوظ في غمد ثمين ثم اخرجهُ من غمدهِ وسلمهُ اليهِ فجعل يمس بهِ جميع اعضاء جسمهِ الاّ نصف انفهِ ثم تقدم قرصوط نحو خصمهِ فلما رآهُ غليوم مقبلاً ترجل عن جواده وجعل ينشد الاشعار ويقص التاريخ والاخبار الى ان وصل الى خلق الليل والنهار وكيف تكونت الارض والانهار وارتفعت السموات عن البحار واستمر الشاعر يروي هذا الخبر حتى كتب ثمانين بيتاً من الاشعار ثم انتهى بالتضرع الى المسيح فقال لهُ ان صح انك مت ثم خبيت فاحفظ غليوم ولكن الهاشمي رأى الدعاء طويلاً فسأل خصمه عن السبب وهنالك رأى الناس العجب وصار كل ينادي بالويل والثبور ويستنزل فوق رأس عدوّه عظائم الامور ثم طلب الى غليوم ان يعرف عن نفسه فاطال الجواب في ذكر اسمائه والقابه واسماء عائلته ونعوتها وفي بيان حربهم وما فعلوا وانهم فتكوا بالمسلمين والسلافيين وختم جوابه بقوله فما بلغوا شأونا وما كانوا قط مثلنا فغضب قرصوط وحملق بعينه وحرّك حاجبيه وحمل على خصمه بكلام طويل وقول ثقيل ثم جعل يمجد الله ويثني عليهِ ويستنزل معونته ويكل الامر اليهِ وبعد ذلك اشتبك القتال وابتدأ الطعن والنزال وكلما كلت السواعد قامت قيامة الجدال وتوالت الحجج والشواهد وفي احدى هذه الفواصل جعل غليوم يبين لخصمه حقوق الملك شارلمان على (رومة) و (توسكان) و (كالابره) ويشرح لهُ

سيادة البابا السياسية ثمَّ حمل عليهِ قرصوط فكاد ينزل بهِ الموت الاحمر وانخلعت قلوب النصارى وضاعفوا الدعاء والابتهال ورفع البابا يديه الى السماء طالبًا ان يعود غليوم الى رومة سالمًا غانمًا فاشتد ساعد رجلهم وفوق الى قرصوط طعنة في صدره فخرج السيف يلمع. من ظهره قال الشاعر ولكنه ما برح مالكاً لقواه ولوكانت الضربة في غيره لاعدمته الحياة ولما احس بالألم انحاز الى جهة وجعل يفكر في الذي خط القلم واما غليوم فرجع الى الدعاء والاستنجاد وعاد الى خلق البلاد والعباد وذكر العهدين الجديد والقديم ودخول عيسى اورشليم ونجاة يوحنا وتنصر بولس الرسول وتوبة (مادلين) وبعد ذلك رجع البطلان يقتتلان فناول قرصوط خصمه ضربة بسيفه البتار اطاحت نصف أنفه فغاب عن الابصار هنالك يئس النصارى واصبحوا في امرهم حيارى وسأل البابا ربهُ ان يعين شجاعهم وان يجفف دموعهم وبينما الناس يصيحون و بالدعاء الى الله يتضرَّعون اذ سكت الجميع لهول موقف المتحاربين وقد حان الحين وزعق غراب البين وحمل الهاشمي على خصمه وناولهُ الضربة فمال عنها وارتد اليهِ بمثلها اطاحت رأسهُ وسال الدَّم فسكن العدوّ رمسه وصاح غليوم مستنصرًا لقد اخذت بثار أنفي واحتاط بهِ اهل رومة وهنأوهُ وجاءهُ الاشراف من قومه ليسألوهُ عن صحته وسلامته

ومن المقتطفات قصة (فارس البجمة) و يقال انها اوَّل قصائد

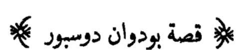
الحروب الصليبية وهي (لحنا رونو) الفها في القرن الثاني عشر ومدارها على ان والدة (قربران) ملك اورشليم ذهبت الى القرشي محمد لتستطلع الاخبار فنبأَها بحضور الصليبيين وان اورشليم تقع في يد (جودفروا دو بويون) وقد نشرت هذه القصة اول مرة في بروكسل سنة ١٨٤٦

ومنها قصة الاسرى وتعزى الى غليوم التاسع امير (بواتيه) الفها في القرن الثاني عشر ومبناها ان (ريكار دو كومون) تقاتل مع رئيسين من رؤساء المسلمين هما غلياس ومورغالي اي الامير خالد فقتل غلياس وجرح مورغالي جرحاً بليغاً فاقر بأنهُ غلب وطلب من ريكار ان يعمده ثم يجهز عليهِ بقطع رأسه

﴿ قصة فتوح اورشليم ﴾

رأى جودفروا في السهل كوكبة من الفرسان فانقض عليها فلما قرب منهم سأَلهم ان كانوا مسلمين او نصارى قائلاً يا هؤلاء اي القوم انتم تؤمنون بالله العظيم ابن مريم قدس اسمها صاحب الشرف الاعلى شديد القوى ام تؤمنون بابوللون وماهون وترافاجان اولئك الاصنام قبحت سيرتهم الذين يعبدهم الاعجام · وجاء فيها ان اثنين من قواد المسلمين اسرا اثناء حصر المدينة فحاول جودفروا ان ينصرهما وان (صوقومان) سلطان المسلمين جرح جرحاً بليغاً فصار يستغيث بمحمد وابوللون

ومن القصص التي ملأَت الاسماع في كل زمان ان محمدًا لما مات وضع في صندوق وكانوا يعتقدون ان ذلك الصندوق من المغناطيس الاصلي وانهُ معلق بين الارض والسماء تحت قبة مغطاة بالحديد والامير يحرسه بمائة وخمسين الف فارس وان (صودان) يراد بهِ السلطان اي ملك المسلمين طلب من الحبر بطرس ان يعتنق الاسلام والحبر اظهر انهُ يميل الى ترك النصرانية فامر القائد باحضار الصنم محمد ليسلم امامه وان جودفروا اسر احد القواد وطلب منهُ ان يتنصر فأَبى وقال انه لا يعبد إِلهًا شنقته اليهود.


قصة بودوان دوسبور

وهي من منشئات القرن الرابع عشر وفيها خروج الكونتس دي يونتيو وهي اوّل ما جاءَ في قصة صلاح الدين وانها صارت زوجة لهُ وولدت منهُ ولدًا هو ذاك صلاح الدين الشهير الذي كان الطامة الكبرى على النصرانية وانها استولت عليهِ وصارت صاحبة الكلمة النافذة عنده بما اتخذتهُ معهُ من الحيلة والملاطفة وهي التي طلبت منهُ ان يسمح بحضور اخيها الكونت دي يونتيو وتعهدت لهُ انها تحملهُ على ترك النصرانية فاجاب سؤلها وقد حكي الشاعر سفر الكونت طويلاً

واما صلاح الدين فذكره موجود في جميع اناشيد ذلك العصر بالفرنساوية واللاتينية وتراهُ في احدى الروايات يتناقش في الديانات

واعظم عيب عاب بهِ النصرانية عبادة البابا ومسئلة الاعتراف وفي رواية (جيل دوكوريل) لولا ما شاهدهُ صلاح الدين من اختلال حال القسس لاعتنق النصرانية وكتب طيب الملك (فيليب اوغوست) هجوا مؤلماً في هذا الموضوع ضد القسس سماهُ الطب المقدس للقسس

﴿ ومنها ﴾

قصة شاعر ريس — يؤكد هذا الشاعر ان صلاح الدين اعتنق النصرانية في مرض موته وقص قصته طويلاً وعزاها الى عم ذلك الملك

﴿ ومنها ﴾

قصة المرور في الارض المقدسة — وهي لعمانويل الكندي يقول فيها انهُ اقام اياماً بمصر وفي بعض مدن الوثنيين الاخرى يعني المسلمين وخالطهم كثيراً وكان قومه يعتبرون رأيه في المسلمين ودينهم قال لما كانت الصدف تجمعني برجلٍ منهم لم يكن ذا شر وضر كنت اتجاسر على سؤاله عن الاسلام وهلاّ نزل فيهِ شيء من التعاليم النفسية فكان يقول لي لم يأتنا بشيء من ذلك بل كله متعلق باللذة الجسمانية ولذلك يسمى بدين الجاموس والجمال وجميع الحيوانات الاخرى وقد حكي هذا المؤلف سبباً غريباً لتحريم المشروبات الروحية فذكر ان محمداً خرج من مكة في نفر من اصحابه الى المدينة وكان معهُ راهب يستشيره على الدوام فالراهب يميل بهِ الى الديانة المسيحية واخصاؤه يميلون بهِ الى الدين

الاسلامي وكان النبي اكثر تعلقاً بالراهب فغضبوا غضباً شديداً وفكروا في الذي يفعلون وكانوا ينامون خارج مضرب اختص هو به مع الراهب فاتفق ذات يوم ان محمداً ذهب الى حانوت خمر وشرب كثيراً حتى اتى نشوان ونام فاجمعوا امرهم على قتل صاحبه ودخل احدهم واستل سيف النبي من غمده وقطع بهِ راس الراهب ثم ارجعه مكانه وانصرف ولما افاق محمد في الصباح ورأى صاحبه مقتولاً اخذهُ الغضب جداً وشدد في معرفة الفاعل فقالوا لهُ انك ذهبت بالامس فغبت عنا طويلاً ورجعت سكران فاخذت سيفك بيمينك وقمت بيننا متهيجاً فظننا انك تريد قتل واحد منا وخشينا ان نقرب منك ثم عمدت الى الراهب فقتلته وارجعت سيفك الى غمده في الحال وهو لا يزال مخضباً بالدماء فاعتقد صحة ما قالوا وحلفوا جميعاً انهم لا يشربون الخمر ابداً ومن هنا حرم الخمر خوفاً لا تعبداً وهم اي الوثنيون (يعني المسلمين) اينما وجدوا الخمر يغرقون فيهِ وهكذا انصرف محمد عن المسيحية ومال الى تلك الديانة البهيمية

❋ ومنها ❋

قصة الغزوة الكبرى – وهي لمجهول وعنوانها (محمد والحيل التي استعملها ليغش العرب والبلاد الاخرى) وقد جاء فيها وصف النبي وبيان حاله على ما كان معتقداً في تلك الايام قال المؤلف ظهر محمد

في زمن الامبراطور هيرقليوس وهو مبتدع كذوب خوان تظاهر بالزهد والتقشف في المعيشة وادعى انهُ نبي مرسل من الله فافتتنت بهِ العرب ثم الاقاليم الشرقية الاخرى ولكي يجعل لهُ ذكرًا دائمًا ويخلد اسمه ويوسع نطاق مملكته ويديم عمله الشيطاني وينشر دينه الطاعوني قرَّر انهُ ليس من حاجة بعده لواعظ او مرشد في الدين وجعل قاعدته استعمال السيف كمن يهمز جوادًا استعد من قبل الى العدو وبذلك ادخل أُممًا كثيرة في مذهبه وقد كانت عدواهُ اشد مصيبة من عدوى المسيخ الدَّجال ولن يمحي اثرها الاَّ اذا عظمت قوَّة الامبراطور وامكنهُ ان يأمر قومه بالتمسك بإهداب النصرانية والاَّ عاقبهم بالاعدام ثم انتهى بهم الحال اي المسلمين فترفعوا عن الرجوع الى الحق ولم يمتثلوا اوامر الخالق المعبود

﴿ ومنها ﴾

قصة جيبير دي نوجان - وهو مؤرخ الحرب الصليبية الاولى وقد نقل في تاريخه عن قومه افكارهم وآراءهم في محمد والاسلام قال تعتقد الأُمة انهُ ظهر في غابر الازمان رجل اسمه محمد اضل الناس عن الاعتقاد بالابن وروح القدس وعلمهم ان كل شيء آتٍ بقدرة الآب الله الواحد الذي خلق الخلق وان عيسى لم يكن الاَّ بشرًا ومن فروض دينه الختان فارخى بذلك للناس عنان الفحش وقلة الحياء ولا اظن ان ظهور هذا

اللعين كان في زمن بعيد عنا لأَني لم أَجد رجلاً واحداً من رجال الكنائس تعرض لرد مذهبه الدنيء ولم اقرأْ في كتاب شيئاً عن حياة ذلك الرجل وكيف كان يعيش ولذلك اراني مضطرًا الى الاخذ عن الذين سمعت ذلك منهم ومن التافه ان نبحث عن معرفة صحيح هذا التاريخ من فاسده اذ غرضنا ان نبين كيف انه كان عظيماً وكم من حادث عظيم خلد لهُ ذكرًا والكاتب في امان من الخطإِ ان اساء القول في رجل فاق شره وصف الواصفين

﴿ ومنها ﴾

قصة الحرب الصليبية الاولى – لمؤلفها (تويبوف) وقد اتمها رجل مجهول وفيها يذكر ذلك المجهول دخول الصليبيين الى اورشليم واول من دخلها هو (تنكريد دي سيسيل) وكان اول همه ان اسرع الى المعبد فدخله ثم جعل المؤَلف يصف اندهاش القائد لما رأَى ان صورة محمد موضوعة مكان صورة المسيح قال المؤَلف ثم فتحت ابواب المعبد وكان اول من دخله تنكريد فرأَى صنم محمد من الفضة وهو مصبوب وموضوع على قاعدة مرتفعة ثقيلة الوزن بحيث لا يحركه ستة من الاقوياء الاَّ بالمشقة وقلما يكفي عشرة رجال لحمله فامعن تنكريد النظر فيه وصاح يا للعار ما معنى هذه الصورة التي اراها موضوعة في هذا المكان الرفيع وما المراد منها وما تلك الاحجار الكريمة وما هذا

الذهب الوهاج وهذا الارجوان (لان محمدًا كان متقلدًا جميع حلاه)
أَهذه صورة المسيح كلاًّ لان المسيح لما صلب على الخشبة كانت
رجلاه ممسوكتين بالمسامير وضرب بالرمح في جنبه اذن هذا ليس هو
المسيح ان هذا الاَّ المرذول محمد اول اعداء المسيح وهو المسيخ ولقد
كنت اتمنى ان المسيخ الثاني الذي قيل بانه سيظهر في مستقبل الايام
يكون بجانب هذا لادوسهما تحت اقدامي وا كرباه هذا محمد المعذب
في الجحيم كيف يظهر عليه في هذه الصورة انه صاحب الامر في
بيت الله كيف يكون لعبد (براطون) وجود في معبد الرب كما لو كان
هو الرب ثم التفت الى جماعته وقال لهم هيا اصعدوا من فوركم فالقوه
في الحضيض فلقد اراد الله ان يكون كما امرت لانه قائم امام الناظرين
بوقاحة كأَنه يريد ان يقوم مقام الله فانقضوا عليه وجذبوه وقلبوه
وهشموه وجعلوه اربًا وقطعوا ذلك المعدن الثمين في ذاته الحقير في صورته
فصار ثمينًا بعد ان كان حقيرًا وكان على جوانب المعبد عصابة من
الفضة الخالصة وضعت تمجيدًا لمحمد عرضها ذراع وسمكهـا كالاصبع
وزنتها سبعة آلاف مارك ورأى تنكريد بحكمته ان لا فائدة في بقاء
هذه الفضة بغير استعمال فكسى منها الفقراء واطعم الجياع وسلح جندًا
جديدًا فزاد في قوته ويوجد في المعبد ايضاً خمسمائة حوض من الفضة
كانت مخصصة كلها لخدمة ذلك الصنم فيها كثير من آنية الفضة
المختلفة الاشكال فاخذها تنكريد وكانت حيطان المعبد مغطاة بالاحجار

و بعضها بالذهب والفضة فنزع تنكريد كل ذلك وجلبه الى بلده ثم استخرجت الاشياء الثمينة التي كانت مدخرة منذ زمن طويل وعرضت على الناس و بعدها سلمت الى تنكريد

﴿ ومنها ﴾

قصة سفر (لودوف دي سودهم) الى الارض المقدسة – الفت سنة ١٣٤٢ ميلادية ولودوف سائح الماني جاء في رحلته عن محمد والمسلمين ما يأتي اعلموا انهُ في سنة ٦٢٠ من تاريخ الرب جاء الشيطان باذن الله ونشر بدعة المحمديين بالطريقة الآتية فاولاً فتن الحبر سرجيوس الذي كان من طائفة القديس (بنوا) وطرد منها لاعتناقه بدعة (نسطريوس) و بعد ان فتنه انفذه الى مقام الملك في رومة لينال بعض الوظائف الدينية ولما لم ينل مراده ويئس من النجاح قفل الى بلاد العرب ونزل في بني هاجر وهم بني اسماعيل الذين سموا انفسهم (سرّازين) تفاخرًا بساره التي كانت بنت اسماعيل ولكن هذا الاسم لا يليق بهم ويجب ان يطلق عليهم عنوان (الماغومديين اي المحمديين) تبعًا لاسم ماغومد الذي اغترت بهِ تلك الطوائف الخشنة التي تسكن الصحراء ولما صار سرجيوس المذكور في تلك البلاد وجد رجلاً جاهلاً احمق اسمه ماغومد واثر عليهِ حتى اعتقد في نفسه انهُ نبي ووضع لهُ بعض البقول في اذنه اليمنى وعلم حمامة فصارت تأتي كل يوم فتقف

على كتفه وتلتقط الحب منها ثم جعل سرجيوس يدعو في الناس بان الله اختار بني هاجر وكانوا في ذلك الحين احقر الامم وارذلهم واراد ان يخرج من بينهم نبي الانبياء وان روح القدس سيناجيهِ امام الناس في صورة حمامة فصدقوا ولما صار ماغومد وسطهم اطلق سرجيوس الحمامة وكانت على سغب فطارت الى كتفهِ وجعلت تلتقط الحب من اذنهِ فاشار اليهِ سرجيوس انهُ هو النبي المرسل من قبل الله لأُمتهِ ولم يكن احد مّا يعرف ماغومد وهو نفسهُ ما كان يعرف عائلته بل وجدوه لقيطًا في الصحراء فآواهُ بعض الاغراب وربوه حتى صار من رعاة الابل ولكونهِ كان مجهولاً عند الناس ظنوا انهُ نزل من السماء

ثم انتشر صيطهُ جدًّا حتى صار الناس يفدون عليهِ في كل يوم من اقاصي البلاد وعند ذلك اجتهد سرجيوس في اقناع امرأة من العرب اسمها (كندوكاجيا) (خديجه) فتزوّجت ماغومد واستعمل ماغومد الغلظة والغش حتى اخضع الامة بتمامها لسلطته ثم اصابهُ داء الصرع انتقاماً من عند الله وكان كلما ينتابه الدور يقول ان السبب في تألمهِ ناشئ من محادثتهِ مع ملك من الملائكة ومن ذلك الحين اخذ في سن القوانين المنجسة وتأليف الكتاب المسمى التريان (القرآن) فكتبهُ هو باملاء سرجيوس لانهُ كان مجردًا عن كل تربية وتعليم . وهذا ما كتبهُ في اول ذلك الكتاب التريان بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله خالق الامة الذي اوجدنا وهدانا الى الطريق المستقيم الا

الذين غضب عليهم فجعلهم من الملعونين قال الراوي ونقل محمد في هذا الكتاب كثيرًا عن كتاب موسى والانجيل وترجم كثيرًا من نصوصها باللفظ مع ان معانيها خفية مجازية وفيهِ كثير من التشبيهات الفارغة التي لا يمكن تصوّرها فمنها ما كتبهُ عن المسيح (نحن نعلم جيدًا من هو عيسى ابن مريم الرجل القديس الذي خلق من روح القدس في احشآء امهِ وجآء بالكتاب للنصارى وكما انهُ نسخ شريعة موسى في اليهود فقد بعثنا الله لنصلح شريعة عيسى) وجآء فيهِ ايضًا (ان اليهود صلبوا عيسى ولكنهُ لم يتألم في الحقيقة وان حياتهُ بعد ذلك مخترعة والماغومديون يعتقدون ذلك)

وفيهِ ايضًا (ان عيسى ليس ابن الله ولكنهُ رجل صالح رفع الى السمآء ودرجتهُ فوق جميع الناس الاَّ ماغومد كل هذهِ في التريان)

وعلى هذا يعتقد الماغومديون في الله القاهر وفي كتابه وفي ماغومد وفي القديس ميخائيل (ميكائيل رئيس الملائكة) الذين يعترفون اليهِ ليلاً بذنوبهم في الجبال ولهم خمسة اعياد يصومون فيها الى المساء ولكنهم يسترجعون جميع قواهم في الليل وهكذا يفعلون في كل صوم ولهم عيد سادس جعلوهُ للشعرى اليمانية التي يعبدونها ايضًا ويختتنون ولا يأكلون لحم الخنزير كاليهود ويكتسون ويحلقون ويركعون كالرهبان ويجوز لهم سبع من النساء بل اكثر من ذلك ويطلقون من لا يريدون من بينهنَّ كالوثنيين ولذلك فكثير منهنَّ يقتلنَ بعضهنَّ بالسم لحقدهنَّ

وغيرتهنَّ وفي الرجال حدة وشهوة يأتون الذكر وليس في قدرتهم ان يقوموا بواجب امرأة واحدة ومع ذلك يتزوَّجون بعدد كثير ولذلك فهم في الغالب يموتون بالسم من نسائهم ولهذه الاسباب كلها ينقطع نسلهم وان كانوا منهمكين في اللذائذ الجسمانية هذا كل ما علمهم اياه وامر باتباعه ماغومد الختال النذل المرذول

ولبني سارة في بلادهم قضاة واساقفة يأمرون قسسهم المحقرين وقد زعم احد القضاة انهم من اولاد القسيسين وفي الواقع اصلهم كذلك ويشتد أولئك القضاة جدًّا على النصارى اذا تقدمت اليهم شكوى ضدهم بانهم دخلوا الكنائس الاسلامية او حضروا اقامة شعائر ذلك الدين او سبوا ماغومد فيحكمون عليهم ان يقطع الواحد منهم اربعاً ثم ختم المؤلف رحلته بقصة موت محمد فقال اما ما تجب معرفته من وفاة ماغومد فهو انهُ بعد ان حكم سبع سنين في بلاد العرب دست لهُ امرأتهُ السم لانهُ كان قذرًا مصروعاً و بينما هو ذات يوم في الصحراء منفردًا كعادته اذ تحرَّك عليهِ السم فوقع ميتاً بعيدًا عن الناس ونهشت جثته الذئاب والضواري وقيل في بعض الروايات ان الخنازير الوحشية اكلته ولم يجدوا شيئاً من اثره اذ ما ترك الذئاب الاَّ ملابسه ولا صحة لما يقوله المسلمون من ان عظامه جمعت ودفنت في مدينة مكة وانها معلقة في الهواء كما حققه بعضهم ممن تنصروا وكانوا قد زاروا ذلك المعبد ولم يروا فيهِ صندوقاً وليلاحظ ان المسلمين الذين يذهبون الى

الحج و يصلون في مكة يعتقدون ان فيها قبر ماغومد ومع ذلك يقولون ان هناك اوَّل معبد لآدم وان ماغومد امر بالصلاة فيهِ ومتى ذهبوا الى ذلك المكان لا يفعلون شيئًا سوى رمي المعبد بالاحجار ليرجموا الشيطان .

❋ ومنها ❋

رسائل (ريكولدو) – وهو قس من التليان توفي سنة ١٣٢٠ وفي تلك الرسائل بيان في الديانة الاسلامية وقد اشتد حزن المؤلف وغضبه من وجود تلك الطائفة اللعينة وكان يكثر من مناجاة ربهِ واظهار الضجر والتوجع من ذلك اليهِ

جاءَ في احدى رسائله و يعتقد بنو ساره انهم ناجون بواسطة غشومهم اللعين محمد الذي توسل بالعسف والخبث الى اقناعهم بنبوّته وأُولئك الذين يؤْمنون بمثل هذا الرجل لا يقال لهم بنو ساره بل مسلمون اي ناجون واني لا اذكر لكم كل ماجاءَ في ذلك الدين بل اقتصر على امرين الاوَّل ان محمدًا يجتهد في إبادة التثليث المقدس تمامًا الذي هو دينكم لانهُ ينفي الابن عن الآب وينفي الآب عن الابن وينفي روح القدس عنهما ودليله ما قرأته عليكم باللغة العربية في القرا ن وما يريد اثباته في عدة آيات وجملة مواضع و يجعلهُ الدليل القاطع من انه يستحيل على الله ان يكون لهُ ولد لانهُ لم يكن لهُ امرأَة

ومعلوم ان من انكر الابن فقد انكر الآب واذا انتفى الابن والاب فلا وجود لروح القدس كذلك قرأت في موضع آخر من القرآن (ان الله لا يغفر ان يشرك بهِ ويغفر ما دون ذلك) وهو يقول ذلك في مواضع أُخرى وقرأت ايضاً ان الله يصلي على محمد

ويؤخذ من رسالة اخرى ان المؤلف كان يستغيث بالقديسين والقديسات ثم يستنجد اخيرًا بالقديس (دومنيك) والقديس فرنسوا ويأخذه العجب من انهما لم يتمكنا من التغلب على عدوه قال ومن هو عدوي هو محمد ذلك المجرم ذلك الختال ذلك الكافر بالله وبالتوراة المقدسة نعم اني لاعجب من انكما وحدكما لم تمحياه بعد من الوجود اناجيكِ ايتها القديسة مريم مدلين يا صاحبة المسيح المصطفاة واستنجد بحولكِ ضد محمد وبني سارة المحمديين لانكِ تعلمين ايتها السيدة المقدسة اني وجدت كنيستكِ الجميلة التي اقامها المسيحيون لخدمتك في (مجدلة) قد جعلها بنو سارة مربطاً للبهائم وصارت مسكناً لاقذر الحيوانات كذلك كنيستك اللطيفة التي بناها لكِ المسيحيون في بطنية وهي التي اذرف فيها المسيح دموع العشق الالهي واحيى اخاكِ لازار من قبره وجدتها ملطخة بالاقذار وصارت مربطاً للحيوانات الوحشية يا اسيادنا أَلا يمكنكم ان تساعدوا المسيحيين على المحمديين او انكم لا تريدون ذلك اني اعتقد بانه يمكنكم ولكن لا تريدون الا اذا صح انكم صرتم من بني سارة (مسلمين) لان من المحقق في جميع

انحاء الشرق ان القرآن كلام الله فاذا صح ان القرآن كلام الله فمن المحقق والمؤكد والذي لا شك فيه ابدًا انكم صرتم رسلاً مسلمين ومقلدين لمحمد ذلك لاني قرأت في الفصل الثالث من القرآن ان عيسى ابن مريم لما رأى البدع فشت في بنيه سأل عمن ينصر الله فاجابه الرسل وكانت هذه الدعوة قد اصلحت ما بهم نحن نصرآء الله نحن مخلصون لله ونشهد باننا مسلمون واننا مقلدون لمحمد

﴿ ومنها ﴾

سياحة امير (انجلور) — التي كانت سنة ١٢٩٥ مسيحية ذكر فيها ما يأتي : سرنا يوم الاحد الموافق ٣١ اكتوبر طول النهار ومشينا يوم الاثنين وهو يوم عيد القديسين حتى اقتربنا من حنفية السلطان فمررنا امامها واقمنا على بعد فرسخين منها والعادة ان جميع الحجاج يحطون خيامهم قريبًا من تلك الحنفية ليقتلوا الهجير بالماء البارد لانه منذ الخروج من غزة لا يوجد ماء صالح للشرب الاَّ في حنفية السلطان والسبب في عدم اقترابنا منها هو انه كان يوجد حولها عشرة آلاف من المسلمين قادمين من مكة وجالسين هناك ليترطبوا بماءها وكان كل واحد منهم يلبس لباس بلدهِ وكلهم يعبدون سيدهم النبي محمد والمسافة بين مكة والقاهرة مسيرة خمسين يومًا في الصحرآء وعلى ما يقال ان مكة هي مدينة كبيرة جدًا وهي ايضًا مدخل الهند وحقق لنا بعضهم

ان في القاهرة المذكورة اثنتي عشرة الف كنيسة لاولاد سارة يقال لها مساجد وفيها يقرأُون صلواتهم و يتعبدون واعلموا ايضاً انهم اكدوا لنا انهُ كما يوجد في القاهرة اثني عشر الف مسجد يوجد اثني عشر الف حمام لكل مسجد حمام و يقولون ان كل مسلم لا يجوز لهُ ان يسمع التلاوة الاَّ اذا كان طاهرًا وكلما اختلى بحله وجب عليهِ الغسل ولهذا فان الناس يغتسلون كثيرًا في تلك الحمامات خصوصاً الاغنياء والفقراء يغتسلون في اليمّ واعلموا انا رأَيناهم يغتسلون وهم يغتسلون عراة بغير أَدب ولا احتشام امام الناس

﴿ ومنها ﴾

اخبار القديس (دينيس) – وفيها يقص المحدث كيف ان مدينة دمياط استخلصت من رجال ملك فرنسا سنة ١٢٤٩ ميلادية و يخبر بابادة الاصنام الاسلامية حيث يقول وقد تقدم الرسول الى المحمدية (يريد بها الجامع) وامر ان تنكس جميع الصور الباطلة واصلح المكان وجعلهُ مستعداً لعبادة سيدتنا المقدسة مريم ثم اقام فيهِ صلاة على سيدتنا

﴿ ومنها ﴾

قصة (مركبروس) – وهو اوَّل من عرف من شعراء الحرب الصليبية الاندلسية (سنة ١١١٤ الى سنة ١١٢٤ وهي التي انتخب فيها

(الفونس) السابع رئيساً ولقب بالامبراطور وقد بدأ الشاعر شعره بما يأتي :

ان الله الذي يعلم كل ما هو كائن وكل ما كان وما يكون قد وعدنا نعمه بواسطة امبراطور اسبانيا · عجباً هل تعلمون ما ينال من الفضل اولئك الذين يتطهرون في الحوض المقدس و ينصرون الله من تعدي الوثنيين في بلاد العرب وطغيانهم ان مجدهم ليكون ابهى من الشهاب الذي تهتدي بهِ فلك البحار ان أُمة الكلاب التي ظهر فيها ذلك النبي الكاذب واُولئك الرجال الخائنون الذين هم اتباع ذلك الرئيس المبتدع قد كثروا فيما يلي الشواطئ والثغور حتى لم يبق احد يعبد الله فعلينا ان نطردهم بفضل الحوض المقدس مسترشدين بالمسيح لنقصي اولئك المحقرين الذين يعتقدون بالسحر والطوالع

❊ ومنها ❊

حكاية (جوُنفيل) – وفيها صيغة اليمين الذي حلفه الامراء المصريون بين يدي سان لويس ملك فرنسا لما دخل تلك البلاد وهي نعاهدك على الطاعة واذا خنَّا فعلينا لعنة من يرتكب ذنباً ويذهب الى الحج بمكة ليزور محمداً وراُسه مكشوفة ولعنة من يطلق امرأَته ثم يراجعها لان من طلق امرأَته فشريعة محمد تقضي عليهِ ان لا يراجعها الاَّ بعد ان ينكحها غيره وانهم ان خانوا عهودهم مع الملك فعليهم لعنة

المسلمين الذين يأكلون لحم الخنزير وقد قبل الملك منهم هذه الايمان لان نقولا العكاوي الذي كان يعرف المسلمين قال لهُ انهم لا يستطيعون ان يغلظوا ايمانهم اكثر من ذلك

ومما جاء فيها ايضاً قولهُ ان الامراء ارادوا ان ينكثوا عهدهم اطاعة لاوامر القرآن فقال احدهم انا اذا قتلنا الملك بعد ان قتلنا السلطان يقول الناس ان المصريين اقبح الناس واشدهم خيانة وكفراناً وقال آخر حقاً نحن كنا من الاشرار بتخلصنا من سلطاننا الذي قتلناه لاننا خالفنا اوامر محمد الذي يأمرنا بالاحتفاظ على سلطاننا كما نحتفظ على العيون ولكن اسمعوا امرهُ الثاني المكتوب في الكتاب ثم تصفح ورقة من الكتاب وقرأ حافظوا على الشريعة بقتل اعداء الشريعة فنحن خرجنا عن امرهِ لما قتلنا السلطان ثم اننا نخرج عن امرهِ ايضاً اذا لم نقتل الملك مهما كانت عهودنا معهُ لانهُ اكبر اعداء الشريعة الوثنية

وحكى جوانفيل قصة دارت بين رجل من رجال الملك وشيخ من المسلمين في سوق دمياط تبادلا فيها الحديث على الدين فقال ذهب حنا ارمين احد عساكر الملك الى دمياط ليشتري قروناً وجلوداً كي يصنع منها نبالاً فوجد رجلاً شيخاً كبيراً جالساً في السوق فناداهُ وسألهُ ان كان نصرانياً فاجابهُ نعم فقال لهُ الشيخ انكم حقاً تكرهون بعضكم ايها النصارى لاني شاهدت مرة ان ملككم المسمى (بدوان) كسر صلاح الدين ولم يكن معهُ الاَّ ثلاثمائة مقاتل مع ان جيش

صلاح الدين كان ثلاثة آلاف واليوم قد وصلتم بذنوبكم الى حالة جعلتنا نأخذكم في الحقول اخذ الماشية فقال لهُ حنا يجب عليك ان تمسك عن ذنوب النصارى لان ذنوب المسلمين اعظم واشد فقال لهُ المسلم انك اجبت بغير تعقل فسأَلهُ حنا ولِمَ ذا فقال لهُ انهُ سيخبرهُ بالسبب ولكن يسأَلهُ قبل ذلك ان كان لهُ ولد فاجابهُ نعم ولد ذكر فقال لهُ اي الامرين اشد وقعاً في نفسك لطمك باليد على وجهك مني او من ولدك فقال لهُ حنا اني اغضب من ابني اذا ضربني اكثر مما لو ضربتني انت فقال لهُ المسلم اذن اجيبك على سؤَالك الاوَّل وهو انكم تعتقدون بانكم اولاد الله المسيح الذي سميتم مسيحيين عنهُ وانعم عليكم كثيرًا حتى جعلكم تعرفون الشر من الخير ولذلك فان الله يغضب منكم اذا فرط منكم ذنب صغير اكثر منا اذا صدر عنا جرم عظيم ونحن جهلاء جدًّا الى حد اننا نعتقد النجاة من ذنوبنا لو اغتسلنا قبل الوفاة لان محمدًا قال لنا باننا نطهر من ذنوبنا بالماء عند الممات

ومما يلذ ذكره ما كان يعتقده الصليبيون في مذهب الشيعة عند المسلمين قال اليسوعي (ايف بروطون) وكان يعرف العربية يروي عن اعتقاد شيخ الجبل رأَيت ان شيخ الجبل لا يعتقد بمحمد ولكنهُ يعتقد بشرع علي عمه وعلي هو الذي رفع محمدًا الى درجات الشرف التي وصل اليها فلما انتهى اليهِ الامر وصار اميرًا على الامة احتقر عمه وابعده فلما رأَى علي ذلك جمع اليهِ من احبه من الناس وعلمهم شرعاً

غير الذي املاه محمد ومن هنا جاء ان اتباع علي يقولون ان اتباع محمد كافرون ويقول اتباع محمد ان اتباع علي كافرون ومن معتقدات احزاب علي ان الرجل الذي يموت في تنفيذ اوامر ربه تذهب روحه فتحل جسداً تسعد بهِ اكثر من سابقه ولذلك فان المقاتلين لا يهابون ان يقتلوا انفسهم متى امرهم الامير لاعتقادهم انهم سيسعدون بالموت اكثر مما لو كانوا احياء ومن معتقداتهم ايضاً انه لا يموت احد قبل اليوم المحتوم لاجله مع انهُ يجب ان لا يعتقد احد مثل ذلك اذ في قدرة الله ان يطيل الحيوة او يقصرها والبدو يعتقدون ذلك ولهذا فانهم لا يلبسون الزرد اذا حاربوا كيلا يخالفوا اوامر شرعهم واذا لعنوا اولادهم قالوا لهم عليكم لعنة الكافرين الذين يخافون الموت فيلبسون الزرد والصفائح قال صاحب القصة وقد رأيت كتاباً موضوعاً ناحية رأس شيخ الجبل فيهِ اقوال كثيرة مما قالهُ الرب للقديس بطرس عند نزوله الى الارض فأوصيته بتلاوة تلك الاقوال لانها اقوال طيبة فاجابني ان هذا شأنه لانهُ يحب القديس بطرس اذ في بدء العالم لما قتل قايين انتقلت روحه الى نوح فلما مات نوح انتقلت منهُ الى ابراهيم وانتقلت من بعده في جسم القديس بطرس لما نزل الرب الى الارض فلما سمع منهُ ايف اليسوعي ذلك قال لهُ ان اعتقاده لم يكن سليماً والقى عليهِ كثيراً من التعاليم الطيبة ولكنهُ لم يرد ان يصدق بها

﴿ ومنها ﴾

قصة تيربان الكاذب – وهي حكاية موضوعة لا يؤخذ منها سند في التاريخ ولكنها احتوت على ما كانت عليهِ الاخلاق والافكار في القرن التاسع والمرجح انها انشئت في القرن العاشر وكانت في زمانها منتشرة راسخة في الاذهان ولكنها اليوم معدودة من الاقاصيص المخترعة باتفاق ولاحتوائها على ما ذكرنا رأينا ان اقتطاف طرف منها مفيد في موضوعنا ففيها كلام طويل عن صنم محمد وكيف ان الملك العظيم شارلمان لم يتمكن من ابادته كما عجز عن ذلك غيره من النصارى قال لما دخل شارلمان بلاد اسبانيا امر رجاله فكسروا جميع الاوثان والاصنام ما خلا الصنم الموضوع في بلاد الاندلس الذي يقال لهُ سلام ومعنى سلام باللغة العربية الله والمسلمون يقولون ان هذا الصنم من صنع شارعهم محمد ولذلك يعظمونه ويعلون قدره ومحمد هو شارع كاذب وقد صنع ذلك الصنم من العفاريت بسحره وجعله بسحره من القوّة بحيث لا يقدر احد على كسره فاذا اقترب منهُ احد من النصارى يموت في الحال واذا دنى منهُ مسلم ليعبد محمدًا ويصلي لهُ يعود بدون جرح يصيبه ولا ضرر واذا وقف عليهِ طائر مات في الحال وتلك الصورة موضوعة على حجر قديم غاية في الصنع والاتقان من صناعة بني ساره على شاطئ البحر في ارض فسيحة مربعة ويبلغ ارتفاعه مبلغ ما يناله

الطير في ارتفاعه والصورة المذكورة هي من معدن غال على شكل رجل قائم على رجليه ووجهه الى الجنوب وبيده اليمنى مفتاح كبير الحجم يعتقد بنو ساره انه يسقط من تلك اليد يوم يولى في بلاد الغلوا (فرنسا) ملك تدين لهُ جميع بلاد اسبانيا ويعدل الشرائع النصرانية على حسب الزمن الجديد ومتى رأى بنو ساره ان المفتاح قد سقط يخفون كنوزهم في الارض ويهربون

❋ ومنها ❋

المرآة التاريخية - طبعت اول مرة سنة ١٤٨٢ وهي لرجل من اصحاب دومينيك يقال له (فنسان دي بوفي) المتوفي سنة ١٢٦٤ وضعها بناءً على امر الملك (سان لويس) وخصص احد فصولها وهو الرابع والعشرون من الجزء الرابع لتاريخ محمد ويقول المؤرخون انه اخذ كثيرًا عن العرب ولكننا نراه اخذ اكثرها من قصة تربان الكاذب واليك المواضيع التي تكلم عنها في الفصل المذكور الاول بدعة التوحيد والبرنسيس (يعني بها السيدة خديجة) وشريعة محمد وفي هذا الموضوع يذكر قصة الحمامة التي تعلمت ان تقف على كتف النبي لتلتقط الحب من اذنه وقصة الثور الذي استأنس

الثاني سرقات محمد وخداعه وفظائعه وفيه يذكر ان النبي كان يقتل ويخنق كل من رآه ومن هنا جاء وهم الناس بانه كان نبياً فتاكاً

الثالث قذارة شريعة محمد وخرافتها وكيف وجد القرآن وفيه يذكر حكاية الراهب سرجه الذي قيل انه علم النبي العهدين القديم والجديد

الرابع حمق اتباعه وتعصبهم الاعمى وصيام المسلمين الكاذب وغسلهم والحج الى البيت بمكة واعتقادهم بنزول الوحي فيه والاصنام التي ابادها شارلمان والتي اقامها

كتاب البابا بي الثاني
الى السلطان محمد الثاني

كتبه اليه عقب سقوط القسطنطينية في يد الاتراك واندثار دولة الشرق وتزعزع دولتي ايطاليا واليونان وقد اجتمع خلق لا يحصى عددهم لينتظموا في سلك الصليبيين تحت امرة اسكندر بك (وماتياس كورفين) ورأى البابا وهو (بي) الثاني ان الخطر على النصرانية يزداد بتمكن الترك واستتباب الامور لديهم فظن انه ليس من المستحيل حمل السلطان محمد على اعتناق الدين المسيحي و بذلك يوقفه في عنفوان فتوحاته ولهذا كتب قبل ان يرحل عن مدينة (انصون) ليسير مع الصليبيين خطاباً نقتطف منه ما يأتي وقد نقلناه من النسخة الاصلية المكتوبة بيد البابا في المكتبة العمومية الموجودة في القسم اللاتيني فصل ١٢٨ ١٨ نمرة ١٥

من القس بي خادم خدام الرب الى صاحب المجد محمد امير الاتراك سلام الله وخوفه

قد اردنا ان نكتب اليكم هذه النصائح حباً في نجاتكم وحفظاً لفخاركم وميلاً للتخفيف عنكم وتثبيت الهدو والسلام في كثير من الامم ونستميحكم ان تتفضلوا بالاصغاء الى ما نقول

نحن لا نعتقد فيكم الاَّ انكم الميون ولستم كأهل (كالونه) من بلاد اسبانيا الذين قيل عنهم انهم لا رب لهم ولا اله يعبدون ولا نراكم الاَّ موقنين بربنا وتعبدون الذي خلق الارض والسموات وما فيهنَّ الله الذي لا يترك ما خلق ولا نعتقد فيكم ايضاً انكم تجهلون وحدة النفوس البشرية التي اذا فارقت اجسامنا انتقلت الى مقام آخر فيسكن بعضها جنات النعيم وهي ما ظهر منها وتسكن الخبيثة جحيم العذاب وليس هذا مذهب خاص بانجيلنا و بالانبياء بل جاء بهِ شرعكم ايضاً وان كان اخطأ من حيث جاء فيهِ ان ما يوجد في هذه الدنيا الفانية من السعادة ناشئٌ عن الصدفة والعرض

يقال ان شرعكم ينص على ان كل نفس ناجية بدينها على شرط ان تعيش عيشة خير حتى ولو ترك المسلم الاسلام واعتنق ديناً غيره ويقال انهُ مكتوب فيهِ (وهو كثيرًا ما يناقض بعضه) ان ليس للانسان نجاة الاَّ اذا اعتقده وعمل بهِ اما نحن فاعتقادنا ان طريق النجاة غير مفتوح الاَّ للنصراني ان اتقى واحسن عملاً فقد جاء الانجيل

بالآية الآتية وهي الحقيقة التي تجلت لنا (من صدق وعُمّد فقد نجى ومن لم يصدق فلا نجاة لهُ)

ثم اخذ البابا يعدد ما حصل للاسرائيليين من المحن طبقاً لما جاء في العهد القديم وقال ومن الصحيح عندكم وعندنا ان شريعة اليهود حقيقية وان موسى وداود وسليمان واسحاق وحزقيال ودانيال انبياء حقيقيون وكذلك جميع رسل الله وحق دين اليهود الذين عاشوا مع المسيح وباطل دين المجوس وعبدة الأوثان وهنا اتى البابا على خلاصة العهد الجديد واطال في رسالة اليسوع وذكر المعجزات الكثيرة التي تؤيدها وان رسالة محمد لم تتأيد بدليل الهي البتة ثم استتبع كتابه فقال وانتم لا تعتقدون معشر المسلمين الاّ بمحمد وقرآنه فانتم تعملون على مقتضى شريعة رجل مات بغير حجة ولا دليل ولا وحي ولا تنزيل اما نحن فنعتقد بواحد حي وهنا ايضاً استلفت البابا ذهن سلطان المسلمين الى ان الفرق بين الديانتين انما هو في الاعتقاد بالتثليث فقال وسنوضح لكم باجلى بيان ما الفرق بيننا وبينكم من حيث الله . نحن نقول ان في الله ثلاثة ذوات الاب والابن والروح القدس وانتم لا تعتقدون الاّ بذات واحدة لا تسمونها اباً ولا ابناً بل الله وتقولون انه هو وحده خالق السموات والارض وما فيهنّ ولذلك فبين النصارى وبني سارة او الترك خلاف كبير في الله فانتم تقولون ان الله جسماني ونحن نقول انه غير جسماني وانتم تقولون ان ما يجري في الارض يجري بالصدفة

ولا دخل لله فيهِ ونحن نعتقد بان الذي خلق كل شيءٍ هو الباسط سلطانه على كل شيء وانتم لا تقولون بالآب في الالوهية ونحن نقول بهِ و بالابن وانتم تنفون الروح القدس ونحن نحقق وجوده ونعبده نحن نقول بان المسيح ابن الله وانتم تنكرون بنوته ولماذا تنكرون ذلك لان الله لايمكن ان يكون لهُ زوجة يلد منها ولدًا ولانهُ لو كان لهُ زوجة ولهُ اولاد منها للزم فساد العالم لتعدد القائمين بامره وانما العالم بيد رب واحد والوحدانية هي عماد الدنيا وحفاظ الممالك والدول اما التعدد فمن لوازمه الفشل واخص لوازمه الخراب والدمار ولكن لم يبلغ النصراني من الجهل والسخافة وقصر النظر ما يحمله على الاعتقاد بان الله يلد ولدًا بواسطة الزواج والاختلاط بالنساء ولم يبلغ منا معشر المسيحيين ضعف العقل حتى نقول بمثل هذا الامر الفظيع بل ربما جاز تعليم ذلك لبني سارة (المسلمين) الذين يعتقدون ان لله جسماً ولهُ رأس ويدان واعضاء ولكننا نحن نحقق ان الله روح لا تجسد فيهِ باقٍ لا يموت ابدي لا تدركهُ الافهام · ولننتقل الى تعدد الزوجات وهو ما جاء بهِ شرعكم وانتم ترونه الطف شيءٍ مقبول جاء فيهِ وانفعه على انهُ لو كان تعدد الزوجات مقبولاً عند الله لوهب عبده الذي خلقه اكثر من زوجة واحدة ولم يقل الله ان الرجل ليترك اباهُ وأُمهُ ويعلق بازواجه بل قال بزوجته ومن المعلوم ان المحبة الحقيقية لا توجد بين الرجل وزوجته الا بالمساواة بينهما فبينما الرجل عندكم يتزوج نساءً كثيرة

نرى المرأة تلزم رجلاً واحدًا فهي كلها لهُ وليس لها منهُ الاَّ يسير ومع ذلك فالنوع الانساني لا يكثر بهذه الطريقة لان كثيرًا من الرجال لا ذرّية لهم لان عدد النساء اقل كثيرًا من عدد الرجال ثم انهُ ليس من العدل ولا من الموافق للحرّية البشرية ان بعض الناس يقتني ازواجاً كثيرة و بعضهم يعيش اعزب لا زوجة لهُ ولا ينبغي لنا ان نقول بتعدد الزوجات لكونه عادة قديمة ولان آباء الأُمم الاوّلين كانوا يتزوَّجون باكثر من واحدة لانهم لم يفعلوا ذلك بنص في الشرع ولا تبعاً لشهواتهم بل تلك مزية اختصهم بها الله لكي يكثر نسلهم فيخلفهم من يقوم بعبادة الله بعدهم وانا نضرب صفحًا عن الطلاق الذي تبيحونه ضد ما جاء في الشرع الانجيلي وعن الزنا والميل الى اللذات الجسمانية وغيرها من الجرائم التي حرَّمتها الشريعة القديمة وحظرتها الجديدة ومع ذلك يظهر انها مباحة عندكم

ثم اخذ البابا يقابل بين النعيمين اللذين وعدها الشرعان للناس وختم كتابه بدعوة السلطان الى اعتناق النصرانية فقال ان للاخيار سعادة ابدية ليست في الذائذ البهيمية او الامور التي تخالف مقتضى الحشمة والوقار وليست على سرر ترتاح فيها الاجسام بل السعادة هي راحة النفوس وحب اليسوع الذي يفوق كل لذة في الوجود فلتذكروا قولنا ولتقبلوا نصيحة محب لكم وادخلوا في معمودية المسيح واستحموا استحمام روح القدس واعتنقوا الانجيل المطهر فان ابيتم نصائحنا تبدد مجدكم كما

يتبدد الدخان ومتى متم كبقية الناس مات معكم كل شيء اما اليسوع فهو وحده سلطان الأمم الى الابد فله المجد الاعلى والجلال الاكبر ابد الابدين ودهر الداهرين امين

﴿ الملحق الثاني ﴾

(كتاب سان اوغستان الى الكونت بونيفاس)

نتقل هنا عن ترجمة موسيو بوجولات الفرنساوية اهم مواضع الكتاب الخامس والثمانين بعد المائة الذي كتبه سنة ٤١٧ القديس اوغستان الى الكونت بونيفاس حاكم افريقيا في ذلك الحين ليؤيد القسوة التي استعملها الامبراطور (هنريوس) مع احزاب (دونا) واولى بمن يتسرع الى ذم هذا الكتاب نظرًا الى الافكار المألوفة في الاعصر الحالية ان يلتفت الى المبدإ الحكيم الذي ادخله في التاريخ موسيو (لافيس) وسماه مبدأ شرعية التعاقب فان ذلك يجعل المؤلف على حذر في حكمه على الحوادث لانه يعلم ان المذاهب تتغير وان الحاضر ليس على الدوام موصلاً الى الحكم على الماضي فكم من فكر اندثر ولا بد ان يرجع للاذهان وكم من مذهب مقبول اليوم سيندثر قال موسيو (فرانس) ان جميع المبادىء التي يقوم بها نظام الهيئة الاجتماعية في هذه الايام كانت قبل رسوخها في الاذهان وصيرورتها نافعة

معدودة من المبادىء المضرة المخالفة للنظام كما ان المنافع الاجتماعية هي التي كانت حجة من ذهب الى المسالمة ومن مال الى العسف والقسوة

قال صاحب الكتاب

لقد جرى لاحزاب (دونا) كما جرى لمتهمي دانيال فان القوانين التي ارادوا ان يظلموا بها بريئاً استعملت ضدهم كما انقلبت الاسود على متهمي الرسول لكن من لطف المسيح ترى تلك القوانين احسن في الواقع لاصحاب (دونا) مما يظنون فهي تعيد الى الحق كل يوم فريقاً منهم وقد يشكو المريض المتهيج مرضه من طبيب يشد وثاقه ويشكو الولد الخارج عن سلطة ابيه من والده اذا ادبه وكلا الاثنين (المريض والولد) محبوب فتركهما وشأنهما كما يريدان رأفة قاسية وان الفرس والبغل وهما من العجماوات يقاومان من يضمد جراحهما وربما كان منهما ما يخشى منه على حياة القائمين بتمريضهما ومع ذلك لا يتركهما المطبب حتى يستعلي الدواء على الداء فيحصلان على الصحة وفي الناس خلق كثير لا يجوز تركهم خوفاً من الهلاك ومتى عاد الرجل منهم الى هداه يعلم ان الذي كان يراه قسوةً وظلماً ليس الا نفعاً واحساناً ولو اردنا الوقوف عند حد الحقيقة لرأينا ان القسوة الظالمة هي التي يستعملها الكافرون ضد كنيسة المسيح وان القسوة الشرعية هي التي تأتيها كنيسة المسيح ضد الكافرين وهي سعيدة ان اصابها العذاب في طلب العدالة وهم اشقياء اذا اصابهم العذاب وهم في طلب الباطل والكنيسة تعذب

محبة فيمن تعذب وغيرها يقسو بعامل الحقد والبغضاء فهي تدعو الى الحق وهم للحق كارهون وهي ترمي الى النجاة من الظلمات وهم فيها خالدون

ولقد اشتدت وطأة المبتدعين على النصارى من خدمة الدين وغيرهم فكانوا بين حالين اما ان يخفوا الحق واما ان ينالوا ما تستطيعه الهمجية من انواع القسوة والتعذيب • ومعلوم ان السكوت عن الحق لا يرجع احداً عن الغواية بل ان في ذلك مدرجة ليدخل في الباطل كثير من قومنا ومن جهة اخرى فان الاعلان بكلمة الحق كان من شأنه ان يثير غضب المبتدعين وذلك يلحق الاذى بمن قرب عهد رجوعه الينا ويمنع ضعفاء العزائم من سلوك الطريق المستقيم أفي هذه الحالة يجوز ان تلزم الكنيسة جانب السكوت وتتحمل هذا كله ولا تطلب معونة الله من القياصرة المسيحيين انه ليس من علة ولا حجة تقوم في جانب ذلك الاهمال

ان الذين كانوا لا يريدون ان توضع لردعهم عن غيهم قوانين عادلة يقولون ان الرسل ما كانوا ليطلبوا مثل ذلك من ملوك الارض وقد غفلوا عن ان زمانهم ليس زماننا وان الامور مرهونة باوقاتها فاي قيصر في ذلك الزمن كان يعتقد بالمسيح حتى كان يضع من القوانين ما يؤيد دين الحق ضد اهل الضلال لكن بعد ان حقت كلمة المسيح وصدق القول بان جميع ملوك الارض سيعبدون الله وان جميع الامم

ستخدمه لم يبق من رجل عاقل يشير على الملك بعدم الاشتغال بمن يدافع عن كنيسة ربهِ ومن يخرج عليها ولا بمن يعتقد بالله او يكون من الكافرين وفي الحقيقة حيث ان الله اودع الاختيار في الانسان فليس من مرجح يحمل على معاقبة من يزني مع عدم عقوبة من يكفر بالله كأَن الكفر بالله اصغر جرماً من خيانة المرأَة لزوجها او ان قلة العقوبة على الذنوب التي يرتكبها الناس لجهلهم بالدين لا لاحتقارهم اياه تصح ان تكون سبباً في عدم العقاب · هل من رجل كان يمكنهُ ان يقول لملكهِ ايها الملك لا شأْن لك في هذا فدع الناس من اتقى منهم ومن فجر · نعم ليس من يشك في ان استجلاب النفوس لعبادة الله بالتعليم والتهذيب أَولى من الزامهم بها بواسطة القهر والارهاب ولكن لوجود قوم تسهل لهم معرفة الحقيقة لا ينبغي اهمال من ليسوا على شاكلتهم وقد دلتنا التجارب ولا تزال تدلنا على ان الخوف والالم افادا كثيرًا في حمل كثيرين على التعلم او العمل بما تعلموا

يعترضون علينا بما قالهُ احد الكتاب (اری ان رد جماح الاطفال بمؤثر الخزي وحب الاستقامة خير من الوصول الى ذلك بالتخويف والارهاب) فقولهُ صحيح في جانب من امكن اصلاحهُ بعوامل الاحساس ولكن الخوف هو لجام السواد الاعظم من الناس وقد علمتنا التوراة ان الابن كالخادم يجب تأْديبه بالعقاب فان في ذلك فائدة كبرى لانك تضربهُ بالسوط ولكنك تخلص روحهُ من

الفساد وكثير من الخدم والاتباع يردون الى سادتهم بالسوط والآلام الجسمانية

اعتاد قوم على الشكوى من التشديد وقالوا ان المرء حرٌّ في ان يعتقد او لا يعتقد وان المسيح لم يستعمل القهر مع احد من الناس ولكننا نذكرهم بالرسول بطرس فان المسيح قهره على اعتناق دينه وعلمه بعد ان ضربه ثم بعد ذلك طيب خاطره

لمَ ان الكنيسة لا تلجئ ابناء الذين ارتدوا عنها الى العودة اليها بالقهر واستعمال الشدة كما انهم اجتهدوا في اضلال غيرهم مثلما ضلوا نعم قد تستعمل الكنيسة قوانين صارمة لرد من خرج عنها بغير القهر الاَّ ان في تلك الشدة فائدة والكنيسة تحفظ لهم عندها صدرًا رحيماً وتفرح بعودتهم اكثر مما تفرح باتباعها الذين لم يضلوا سبيلها كالراعي يجب عليهِ ان يعيد لسيده الشاة التي اخذت منهُ بالحيلة كالتي اخذت بالقهر فان عصته ضربها حتى استردها

يدعون بانهُ لا يجوز ان يقهر المرء على الخير ذلك لانهم رأَوا انا لا نقهرهم على غيره الاَّ ان الله امر ان يؤْتى بالناس الى سماطه فان خالفوا اجبروا فلما قال لهُ الخدم ان اوامره نفذت ولكن المكان لا يزال فسيحًا قال لهم انطلقوا في الطرقات والحضائر واتوا بمن لاقيتموه وان قهرًا وفي كلامه حكمة فان من اقبل طائعًا فهو كمن اعتنق الدين بالسهولة ومن عصى فانه يمثل لنا المذنب الذي جوزي على عصيانه

قبل ان تنشر القوانين القاسية في افريقيا لحمل اصحاب دونا على الدخول في الدين القويم ذهب كثير من اخواني وقرنائي وانا معهم الى انهُ لا يجب ان نطلب من القياصرة ابادة مذهبهم بتوقيع العقوبات عليهم وذهب اخرون وهم الاكبر سناً فينا الى خلاف ما ذهبنا واحتجوا بان كثيرًا من البلاد انما دخلت في ديننا بما وضعه الملوك من القوانين التي كانت تلجئهم الى ذلك شدة وقسرًا ومع ذلك قر القرار على ان لا نطلب من الملوك قسوة ولا شدة وان يكتفي بتغريم كل حبر او قس غير كاثوليكي عشرة جنيهات وقام نوابنا لتبليغ ذلك ولكن حكمة الله قضت ان يعود رسلنا خائبين ذلك لان الله يعلم ان الخوف وصرامة القوانين لا بد منها في اصلاح كثير من النفوس التي حادت عن الحق وان الشدة تنفع حيث لا ينفع الوعظ ولا يجدي الخطاب

﴿ الملحق الثالث ﴾

(مقابلة)

بين الصيغة التي يقولها مسيحي يعتنق الاسلام والتي يقولها مسلم يتنصر

الصيغة التي يقولها المسيحي في اسلامه نقلاً
عن كتاب ابن سلمون قاضي مدينة
قرطبة بالجزائر المتوفي في
القرن الخامس من
الهجرة

يعلن المسيحي فلان انه يرفض الدين المسيحي عن اعتقاد وانهُ يعتنق ديانة الاسلام عن اعتقاد لانه يعلم ان الله ليس لهُ نظير وانه نسخ بالقرآن ما انزله قبله من الكتب والشرائع والاديان ويشهد المسيحي المذكور ان لا إله الاّ الله وان الله ليس له شريك وان محمداً عبده وخاتم رسله وانبياه وان المسيح ابن مريم هو عبده ورسوله وان الله ارسل احد ملائكته الى مريم ليخبرها بانها ستلد عيسى وانها حملت من روحه تعالى وبهذا خضع المسيحي المذكور لجميع اوامر الاسلام الالهية المتعلقة بالوضوء والصلاة والزكاة والصيام وغيرها ويعلم ما يترتب على تركها من العقاب كما يعلم المحرمات الواجب الامتناع عنها وعليهِ فانه مال

الى الاسلام حبًّا فيه ويحمد الله على هذه النعمة التي انعم بها عليهِ فالهمهُ اعتناق هذا الدين هذا هو ما قاله المذكور قولاً مجرَّدًا عن الخوف وخاليًا عن كل تأثير لانهُ لا يجب ان يقهر المرء في الدين

الصيغة المستعملة في الكنيسة اليونانية لخروج المسلم عن دينه

رأينا اتمامًا للفائدة ان نقرن الصيغة السابقة بصيغة غريبة مستعملة في الكنيسة اليونانية نقلناها من كتاب سيلبورج المطبوع سنة ١٥٩٥ ويلاحظ القارئ ما احتوت عليهِ من الخرافات في صيغ السباب الموجهة الى محمد ودينه وفي الواقع لا يفهم الرجل الذي يخرج عن الاسلام ذي المبادئ السهلة البسيطة من تلك اللعنات المتتابعة شيئًا ومن المحتمل ان هذه الشتائم وضعت ليقولها من يخرج عن النصرانية ثم يعود اليها لاننا رأينا فيما تقدم ان المسلمين لا يعدلون عن دينهم كما شهد بهِ المرسلون في بلاد الشرق والجزائر واذ كان هذا شأن المسلمين في هذه الايام حيث الأُمم المسيحية ذات اليد العليا في الممالك الاسلامية فما ظنك بها ايام القرون الوسطى حيث كان الاسلام يتهدد بقاء الديانة النصرانية في الوجود والصيغة المذكورة مكتوبة باللغة اللاتينية وقد ترجمناها الى اللغة الفرنساوية وهي بنصها

الصيغة الواجبة ملاحظتها على من ينتقل من
دين بني ساره الى ديانتنا الطاهرة
الحقة المسيحية

فاوّلاً يجب على المريد ان يصوم اسبوعين ويتعلم الصلاة التي علمنا اياها سيدنا عيسى اليسوع في اناجيله المقدسة وكذلك علامة الدين وبعد ذلك يلبس القس ثوبه الكهنوتي ويأتي بالمريد في حضيرة التكريز بحضور المؤمنين الذين يرغبون في الحضور ويوقفه امام الهيكل مكشوف الراس ثم يقول لهُ انت يا من يترك اليوم ديانة بني ساره من غير ان تكون مجبورًا على ذلك ولا خائفًا او مغشوشًا بل باختيارك عن طيب نفس وقلب طاهر محب للمسيح ودين المسيح قل كما اقول اني اقلع عن ديانة بني ساره كلها والعن محمدًا الذي يمجده بنو ساره ويقولون انه نبي الله ورسوله فيظهر المريد رضاه بنفسه ان كان يعرف اللغة اليونانية او بواسطة مترجم ان جهلها او بواسطة وصية ان كان قاصرًا ويتلو القس بعد ذلك الصيغة الآتية والمريد يكرّرها من بعده فاذا تم القول قال القس فلندعُ الرب والناس يجيبونه ربِّ ارحم الى آخر صيغة الدعاء ويختمون بلفظة آمين ويبارك القس للمريد ويصرفه ويصير نصرانياً من اليوم الثاني لهذا الاحتفال

اما ما يقوله القس ويكرّره المتنصر فهو ما يأتي :

انا الذي في هذا اليوم اترك ديانة بني ساره حبًّا في الديانة المسيحية بغير ادنى اكراه ولا اضطرار ولا غرور ولا غواية بل عن طيب نفس محبةً في المسيح ودين المسيح اني اقلع عن ديانة بني ساره كلها والعن محمدًا الذي يمجده بنو ساره ويقولون انه نبي الله ورسوله والعن عليًا صهر النبي والحسن والحسين ولديه وابا بكر وعمر وطلحة ومعاوية وزيدًا واليزيد والسيد وعثمان وجميع صحابة محمد وانصاره وخلفائه والعن سيدة وعائشة وزينب وأُم كلثوم زوجات محمد الاولى ثم البقية اللاتي هنَّ اكثر جرمًا ومعهنَّ ابنته فاطمة والعن ما يقال لهُ القرآن اعني بهِ سفر محمد او كتابه الذي ادعى انهُ نزل عليهِ من السماء على لسان الملك جبريل وكذلك مذهبه باجمعه وقواعد دينه وقصصه الكاذبة واسراره وسننه وما اتى بهِ من الكفريات

والعن جنة محمد التي يقول ان فيها اربعة انهار تجري فيها المياه العذبة ولبن لا يحمض وخمر لذيذ وعسل نقي ويقيم فيها بنو سارة يوم القيامة التي تقوم بعد خمسمائة الف عام مع نسائهم منهمكين في الشهوات البدنية ويجلسون تحت شجرة سدره وياكلون من الطيور ما يشتهون وجميع فواكه الخريف ويشربون من عين الكافور وعين الزنجبيل التي تسمى سلسبيلاً ويشربون ايضًا نبيذًا مزاجه من تسنيم وتعظم اجسامهم حتى تبلغ السماء طولاً رجالاً ونساءً ويتمتعون بالعشق والغرام بدون ملل بحضرة الله لانهُ يقول ان الله فوق كل حياء

والعن الملائكة الذين يسميهم محمد هاروت وماروت والعن احاديث محمد وما نقله عن العهد القديم والعن ذلك المذهب الكاذب وذلك الوعد الذي يدعي فيه محمد انه سيكون فاتح الجنة وانه يدخلها سبعون الفاً من بني ساره الصادقين وان الله يحكم في المجرمين فيغلون بالسلاسل من رقابهم ثم يدخلون الجنة ايضاً ويقال لهم عتقاء محمد

والعن شريعة محمد في الزواج والطلاق وتطهير الزانيات وعدد الزوجات والسراري وجميع مذهبه المنجس في جميع هذه الاشياء والعن ما جاء بهِ محمد من السب في الله حيث يقول انه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وان الله لو شاء لقتلنا بعضنا بعضاً وانهُ يفعل ما يريد وانهُ فاعل الشر والخير معاً وهكذا الصدفة والبخت هما المؤثران في كل شيء

والعن اكذوبة محمد التي يقول فيها ان سيدنا والهنا عيسى اليسوع هو ابن مريم أُخت موسى وهارون وانهُ ما ولد من اللحم بل حملته امه من روح الله وانهُ قلد الطيور لما كان صبياً من الطين ونفخ فيها فصارت حية والعن مذهب محمد الذي يقول فيهِ ان المسيح ليس ابن الله بل نبي الله ورسوله لانهُ ليس لله شريك وان الذين يقولون ان المسيح شريك الله سيعذبون في نار جهنم

والعن قول محمد ان لله في مكة بيتاً للصلوة بناهُ ابراهيم واسماعيل يسمونه الكعبة ويأمر بان المصلين يولون وجوههم قبله اينما كانوا والعن

ذلك المعبد نفسه الذي يقولون ان في وسطه حجرًا كبيرًا يمثل الزهراء ويقدسون هذا الحجر كما يقدسون الحجر الذي يقال بان ابراهيم تعرف عليهِ بهاجر او عقّل فيهِ جمله لما اراد ان يقرب اسحاق وبان الذين يزورون هذا المعبد يضعون احدى اليدين فوق الحجر ويمسكون الاذن بالثانية ثم يدورون حوله حتى يأخذهم الدوار فيخرون الى الارض والعن مكة ذاتها وارضها كلها والحجارة السبعة التي يرميها فيها بنو ساره ضد المسيحيين وجميع صلواتهم وعباداتهم وشعائرهم ومذاهبهم

والعن قصة محمد في الناقة التي يقول انها خصصت لله فعقروها فانتقم منهم لاجلها والعن الذين يعبدون نجم الصباح اعني بها الزهراء والشعرى التي يسمونها الكبرى

والعن جميع قواعد محمد التي يشتم فيها النصارى ويقول انهم كافرون ومشركون ويهيج بني ساره على قتلهم وابادتهم ويقول ان مقاتلتهم هي طريق الله وان من مات من بني ساره في محاربتهم يكونون من ابناء الله ولهم الجنة

والعن تعاليم محمد النجسة في الصلاة حيث يقول ان من لم يجد ماءً فليأخذ ترابًا دقيقًا ويمسح بهِ وجهه ويديه والعن قول محمد ان الانسان خلق من طين وقطرة ماء ودود الحكمة ومادة متأكلة

وفوق ذلك كله العن إله محمد الذي يقول عنهُ انهُ إله فرد كامل لم يلد ولم يولد ولم يكن لهُ كفوًا احد

وعليهِ العن ما تقدم كله ومحمدًا نفسه والهه الكامل وابتعد عنه والتحق بالمسيح وهو الحق وحده واعتقد بالآب والابن وروح القدس

ثم يتبع ذلك تلخيص المذهب المسيحي ويختم المريد الصيغة بالعبارة الآتية

واذا كنت اقول ما اقول عن غش اوخيانة لا عن اعتقاد ويقين وقلب يحب اليسوع فعليَّ اللعنة ولتكن روحي مع الشيطان

﴿ الملحق الرابع ﴾

(قتلى مراكش)

اصح تاريخ عن المرسلين الخمس الذين قتلوا في مراكش يوم ١٦ يناير سنة ١٢٢٠ هو ما كتبه قس مدينة لسبون ورئيس اليسوعيين الذين يقال لهم القصر بناءً على شهادة رجل حضر الواقعة وكان من اركان حرب (دون بدرو) ونحن ننقله ملخصاً عن تاريخ القديس (فرنسوا داسيز) الذي أَلفهُ القس (مونبيه)

كان وصول البعثة الى مدينة شيبيليه من الاراضي الاسلامية وبقي المرسلون مختفون ثمانية ايام بمنزل احد المسيحيين ثم قويت عزائمهم بالصلاة وارادوا ان يبدأُوا رسالتهم بعمل عظيم لذلك خرجوا الى مسجد اجتمع فيهِ المسلمون للصلاة فلما رآهم المصلون ظنوا انهم من

المجانين لما هم عليهِ من اللباس الغريب فاكتفوا بطردهم من الجامع بالعنف فذهبوا الى مسجد اكبر من الاوّل فلاقوا فيهِ مثل ما لاقوا في الاوّل وحسبوا ان عدم نجاحهم مسبب عن كونهم لم يبدأوا بأعلى مكان في المدينة وقالوا لبعضهم علينا بالرئيس فان اصغى الينا سهل انقياد مرؤسيهِ ثم توجهوا الى قصر الحاكم وزعموا انهم مرسلون من قبل ملك الملوك واخذوا يعظون من فيهِ ضد محمد ولم يمسسهم احد بسوء حتى اذا سمعهم الحاكم عجب من جرأتهم ثم غضب وامر ان تقطع رؤوسهم فشفع فيهم لديه ابنه وتبدل الامر بسجنهم في احد الحصون فلما صاروا بداخله صعدوا الى منصته وجعلوا يلقون وعظهم على المارّة غير مبالين فصدر الامر بنفيهم الى بلاد مراكش مع عدد من المسيحيين ففرحوا مستبشرين بكونهم سينشرون علَم الصليب في بلاد الكافرين وكان يوم نزولهم على تلك البلاد يوماً عصفت فيهِ العواصف فظنوا ان الله كتب لهم النصر في تلك البقاع وكان (دون بدرو) اخ أُلْفُنْسْ ملك البرتغال قد اختلف مع اخيه فرحل الى بلاد مراكش واحتمى فيها بظل امير المؤمنين علي بن يوسف الذي حكم سنة ١١٠٦ الى سنة ١١٤٣ وكان من عادته الاحتفاء بالمسيحيين وتقليدهم اعلى المناصب حتى اختار لهُ منهم حرساً عدده الف نفر وكان (دون بدرو) معروفاً بالبسالة وحسن السمعة فمالت اليه القلوب وولاهُ الملك على نصرانيته قيادة الجنود الاسلامية وكان متمسكاً بتقاليد عائلته فلم يخف من

استقبال المرسلين على مشهد من الناس ووعدهم معونته وسألهم ان يكونوا في امرهم متبصرين حتى لا يصيبهم السوء فوعدوه وكانوا في وعدهم صادقين ولكن جاش بهم حب رسالتهم فلم يتمالكوا انفسهم بل خرجوا من اليوم الثاني وجعلوا يعظون الناس بدين اليسوع في الطرقات وبعد ايام صعد احدهم على عربة وبينما هو يخطب في الناس بالعربة اذ مرَّ به الملك ذاهباً لزيارة اضرحة اجداده فعوضاً عن ان يسكت الخطيب وكان اسمه الاخ (بيرار) كما كان يفعل المسلم نفسه ضاعف في الوعظ واشتدت لهجته وهو عمل لا يستطيع احد ان يأتيه هذه الايام في بلاد مراكش لان المسلمين يقطعونه ارباً غير مبالين بما عساه يصيبهم من نقمة المسيحيين ذلك لان مسالمة المسلمين للمسيحيين في القرون الوسطى ايام التمدن الاسلامي كانت اكبر منها في هذه الايام فلما علم الملك انهم مسيحيون وانهم يدعون الناس الى دين المسيح غضب من فحتهم وامر بارجاعهم الى بلادهم لحزن (دون بدرو) لهذا الامر ولكنه لم يقع عنده موقع الاستغراب ولم يمنع عن المرسلين مساعدته بل اصحبهم برجال من عنده الى الثغر الذي يركبون البحر منه فهرب المرسلون من اصحابهم ودخلوا مدينة مراكش مرة ثانية ونمى خبر عودتهم الى امير المؤمنين فرأى في عملهم امتهاناً لسلطته وامر بزجهم في السجن فقضوا فيه عشرين يوماً مضيقاً عليهم اشد التضييق ثم شفع فيهم (دون بدرو) فاستصحبهم الملك معه في جيش خرج به لمحاربة بعض القبائل

المتمردة بصفة وعاظ للمسيحيين الذين معه فلما عادوا الى مراكش عادوا الى الدعوة ولم يقتصروا على عامة الناس في الازقة والطرقات بل صاروا ينتظرون الامير في ممره ويدعونه الى دين المسيح فرأى انهم لن يعدلوا عن غيهم وامر احد قواده وهو ابو زائدة باعدامهم واجتهد ابو زائدة في ردهم عن فعلهم فلم يفلح لذلك انفذ فيهم امر سيده في ١٦ يناير سنة ١٢٢٠

مقابلة القديس فرنسوا داسيز مع سلطان مصر في معسكر دمياط سنة ١٢١٦

كان القديس فرنسوا داسيز مغرماً بحب الدعوة الى الدين المسيحي وعلى الخصوص بادخال الانجيل في البلاد الاسلامية ولذلك فانهُ استصحب الاخ ايلوميني ولحقا بجيش (حنا دي بريان) المقيم على مقربة من مدينة دمياط في الحرب الصليبية الخامسة وبعد ان اقام فيهِ اياماً عزم على التوجه الى معسكر السلطان فاشاروا عليهِ بالعدول عن عزمه لما في ذلك من الخطر عليهِ فلم يقبل مشورتهم وذهب مع رفيقه الى القس المصاحب لجيشهم كي يخبره بما عزم عليهِ ويطلب منهُ ان يصرح لهما بالذهاب حيث ارادا فامتنع من اجازتهما وقال لهما انهُ على يقين من انهما لن ينجوا اذا ذهبا ولما رأى انهما مصران على الذهاب قال لهما انهُ لا يعرف مغزى افكارهما واوصاهما ان يكونا على الدوام متمسكين

بالعذراء فاجابا بالقبول وتوجها من فورهما الى معكسر السلطان وظن من قابلهما من المسلمين انهما خديعة فلما فهما من اشاراتهما انهما يريدان نشر الانجيل بين بني سارة زجوهما في السجن وجلدوهما ضرباً بالعصي وكان القديس فرنسوا داسيز يصيح قائلاً سودان سودان وهي اللفظة الوحيدة التي كان يعرفها واصلها صلادان وهذه تحريف سلطان ثم انتهى ان تمكن من تعريفهم مقصده في مقابلة السلطان فمثلا بين يديه وهو الملك الكامل خامس الامراء من الايوبيين حكم (من سنة ١٢١٨ الى سنة ١٢٣٨) فسلما عليهِ وسلم عليهما وسألهما ان كانا يريدان الدخول في الاسلام او انهما اقبلا برسالة من قبل اميرهما فقالا انهما لن يريدا الاسلام ابدًا وانهما اتيا برسالة من الله لكي تنجو حياة السلطان ان اراد اتباع نصحهما وانهُ ان مات على دينه فهو هالك وانهما يبينان لهُ بالعقل والبرهان ان المسلمين اذا استمروا على شرائعهم فجميعهم هلكى فقال لهما السلطان ان لديه قسساً ورهباناً لا يمكنهُ ان يسمع قولهما بدون حضورهم فاشارا عليهِ بدعوتهم فلما صاروا بحضرته مع كبراء قومه واعيان مملكته اخبرهم بالامر فاشاروا عليهِ باسم محمد ان يقطع رؤوسهما لانهم لا يصدقون ما يقولان عملاً بالكتاب الذي يحرم سماع الوعظ من غير المسلمين وانصرفوا من عنده فلما خلى السلطان بالرسولين قال لهما ان المسلمين اشارا عليهِ بقطع رؤوسهما ولكنهُ يخالف مشورتهما ويخلي سبيلهما لانهما جاءَ ليخلصا روحه من الهلاك

❋ الملحق الخامس ❋

(تعدد الزوجات في الاسلام)

(نقلاً عن احد المفسرين)

فسر ابن الخازن وهو من اشهر مفسري القرآن وله رأي معدود لدى المسلمين الآية الآتية على ثلاث طرق وهي الآية الثالثة من السورة الرابعة (وان خفتم ألاَّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)

التفسير الاول قال عروة نقلاً عن عائشة رضي الله عنها ان الله اراد ان يمنع زواج اليتامى اللاتي تحت وصاية حموهنَّ بمن يطمع في جمالهنَّ واموالهنَّ ولا يعطيهنَّ من الصداق ما يليق بهنَّ تواطئاً مع الاوصياء ولذلك امر الله المؤمنين ان يختاروا نساءً اقل جمالاً واقل مالاً يليق بهنَّ ما يقدمون لهنَّ من الصداق الاَّ اذا كان الخاطب قادراً على صداق المثل

التفسير الثاني روى الحسن انه كان بمكة اوصياء على اقاربهم من النساء يجوز لهم ان يتزوجوا منهنَّ وكانوا لا يرغبون فيهنَّ الاَّ حباً باموالهنَّ لا ميلاً لجمالهنَّ لانهنَّ لم يكنَّ ليعجبنهم وكان للاوصياء نصيب شائع في تلك الاموال ويخشون تداخل غيرهم من ذوي القربى بينهم فيتزوَّجوهنَّ ويسيئون معاملتهنَّ حتى يقضى عليهنَّ فيختصون بما كان

لهنَّ من المال فأراد الله ان يرجع الناس عن ذلك وانزل الآية المشار اليها

التفسير الثالث قال عكرمة عن ابن عباس انهُ كان في قريش من يتزوّج بعشر نساء واكثر وكان حالهم يؤول الى الفقر لما تستدعيه لوازم معيشة تلك الزوجات فيتصرفون في اموال القصر من البنات اللاتي كنَّ تحت وصايتهم فملافاة لهذا الضرر وهو الفقر من جهة وضياع اموال اليتامى من جهة أُخرى امر الناس ان لا يتزوَّجوا باكثر من اربع نساء لذلك نزلت الآية الثانية من السورة المذكورة تأْمر برد اموال اليتامى اليهنَّ متى بلغن الرشد

هذا هو الذي رواهُ الثقاة ولا يباح لمسلم ان يتزوّج باكثر من اربعة فان ذلك محرم قطعاً ثم لا يجوز لهُ ان يتزوّج باربعة الاَّ اذا كان قادرًا على رزقهنَّ

﴿ الملحق السادس ﴾

(مقدمة الشيخ الشعراني)

يرى المسيحيون على الدوام في تعدد الزوجات عن المسلمين انهاكاً منهم على الشهوات واللذائذ الجسمانية وهو وهم لا حقيقة لهُ وخطأ في معرفة اخلاق الشرقيين فقد قلنا ان تعدد الزوجات عند بعضهم امر تقتضيه وجاهتهم بين قومهم كما كان ذلك معروفاً عند

الجرمانيين وكثير من الذين لهم اكثر من زوجة يعيشون عيشة كمال وتقى ووقار وليسمح لي القراء ان آتي على طرف من مقدمة الشيخ الشعراني التي صدر بها كتابهُ ميزان الشريعة تأييدًا لما اقول · لقد خصني الله ان ولدت من نسل كريم ولكن الشرف مزية باطلة بلا خوف الله ورهبتهِ وقد خصني الله بمواهبهِ منذ نعومة الاظفار فحفظت القرآن عن ظهر قلبي ووعيتهُ باكملهِ في الثامنة من عمري · وكنت أؤدي الصلاة باوقاتها ولم أؤخر منها الاَّ واحدة بغير ارادتي واتفق لي مذ كنت صغيرًا اني كنت اتلو القرآن بتمامهِ في صلاة واحدة وقد منَّ الله عليَّ فحفظني من نزعات الشهوات التي تثور في الانسان من يوم بلوغهِ الحلم الى ان بلغت الثلاثين · فكنت ارغب عن موجبات التلذذ واستعمل اوقاتي في اكتساب العلم وقليل من الناس حفظوا انفسهم زمنًا طويلاً مثلي · فالحمد لله الذي حفظني حتى تزوجت فاحفظوا انفسكم مطهرين ايقانًا بلطف الله وحسناتهِ لا اعتمادًا على انفسكم ولكن اذا رأيتم ان الشهوة ستغلبكم فتزوَّجوا ولو استدنتم في سبيل الزواج كي تنجوا من الضرر واذا قدرتم فصوموا فهو أَولى بكم من الزواج مع الاستدانة وقد أَوصى على الخواص غير المتزوّجين بالجوع وكثيرًا ما كان يعطي الاعزب حبلاً يشد بهِ بطنهُ فلا يشعر بحاجة الى اللذة ما دام بطنهُ مشدودًا

وقد وهبني الله اربع نساء فاضلات هنَّ زينب وحليمة وفاطمة

وأُم الحسن كلهنَّ قائمات بواجباتهنَّ تحب النظافة والصلاة واكثرهن في التقى فاطمة وأُم الحسن وكثيرًا ما كانت فاطمة تقف خلفي للصلاة وكنا نقرأُ في صلاتنا ربع القرآن وهي لا تتركني الاَّ اذا بكى ابنها ولم يكن عنده من يقوم مقامها وكانت لا تذهب الى وليمة ولا تحضر عرساً لفرط كمالها وشدة وقارها واصابها يوم رمد فحال كمالها بين الطبيب وبين رؤْية عينها ولم نفلح في اقناعها ثم شفي المرض ولكن زاوية العين الداخلية ضاقت فخالفت العين أُختها وكانت تفضل ذلك على كشف عينها للطبيب وكانت نسائي الاربعة تشجعني في فعل الخير وتعينني عليهِ وتدفعني الى ايصال الصدقات للعوزين

﴿ الملحق السابع ﴾

يعتقد المسلمون ان الآية الآتية المذكورة في الكتاب الخامس من التوراة تشير الى محمد وتنبيء برسالته وهي « جاء الرب من طورسينا وتجلى لنا في صاير وظهر في (فاران) فسينا هو جبل الوحي على موسى وصاير (بالمثناة التحتيــة) جبل في بلاد المقدس وهو مهبط وحي المسيحيين وفاران[1] ببلاد العرب مهبط القرآن قال ابو الحسن على الهراوي وهو سائح عربي في القرن الثاني عشر في رحلته (نصيرة) هي المدينة التي فيها بيت مريم بنت عمران التي ولدت فيهِ وسمي المسيحيون

(١) لعله يريد جبل حرى

نصارى تبعاً لاسم المدينة المذكورة وهي على مقربة من جبل صاير وفي القسم الاوّل من التوراة ذكر لموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام لانه مذكور فيهِ (اتى الله من سينا واراد ان يمجده موسى على ذلك الجبل) ومذكور فيهِ ايضاً (واظهر في صاير علامة باهرة تدل على ان عيسى خوف ظهر في نصيرة المقدسة) وفيهِ ايضاً واظهر في جبال (فاران) علامة القايعرف بها ان محمداً بعث رسولاً ٠ هذا هو كلام التوراة

انتهى

تمت ترجمته حيث كانت الساعة تسعة ونصف افرنكي صباحاً بعزبة صاحب العزة محمد نسيم بك الانخم التابعة لمركز المنصورة حيث كنا في نزهة بها يوم الاربعاء ثامن شهر ستمبر سنة ١٨٩٧ (١١ ربيع الثاني سنة ١٣١٥)

٤ ج


Bibliotheca Alexandrina
0519634